المحاضرة الأولى: الاستشراق مفهومه ، نشأته ، اهدافه

1-تعريف الاستشراق:

الاستشراق اتجاهٌ فكريٌّ يُعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة ، وقد كان مقتصراً في بداية ظهورِهِ على دراسةِ الإسلامِ واللُّغةِ العربيةِ ، ثم اتسعَ ليشملَ دراسةَ الشَّرقِ كُلِّهِ ، بلغاتِهِ وتقاليدِهِ وآدابِهِ ،والمستشرقون هم علماءُ الغربِ الذين اعتنَوا بدراسةِ الإسلامِ واللُّغةِ العربيةِ ، ولُغات الشَّرقِ وأديانه وآدابه

كما يعرف الاستشراق بأنه (مجموعة المباحث التي تتناول بالدراسة الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها ، أو هو تذوق أشياء الشرق)

2-أهداف الاستشراق:انطلق المستشرقون في دراستهم للإسلام من مُنْطَلقينِ كان لهما أبلغ الأثرِ في توجيه الدِّراساتِ الاستشراقيةِ.

المنطلق الأول: النزعةُ الصَّليبيةُ التنصيرية التي خيَّمت على أذهانِ المستشرقينَ, وغَطَّت على أفكارِهم، فجاءت دراساتهم في ثوب تنصيري، فقد ارتبط الاستشراق في جميع مراحله ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسات الكنسية التنصيرية.

المنطلق الثاني: النزعة الاستعمارية السياسية المادية التي تهدف إلى بث النفوذ الغربي على البلدان الإسلامية، ونهب خيراتها وثرواتها.

ومن خلال ما سبق يمكن تلخيص أهداف المستشرقين والدراسات الاستشراقية في الآتي:

أ. إفساد صورة الإسلام ، بطمس معالمه ، وتشويه محاسنه ، وتحريف حقائقه، وتقديمه للعالم على أنه دين متناقض.

ب. تشكيك المسلمين في دينهم ، بإثارة الشبهات حول الإسلام ورسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ - ، لإضعاف صلتهم بهذا الدين وارتباطهم به.

ج. إحياء النعرات القبلية ، والعصبيات المذهبية، والنزعات الطائفية والعقائدية، وإثارة الخلافات، لتفريق وحدة المسلمين، وإضعاف روح الإخاء بين المسلمين، وإثارة اللهجات العامية وذلك بالتشكيك في اللغة العربية ومصادرها.

د. غرس المبادئ الغربية في نفوس المسلمين وتمجيدها، والعمل على إضعاف القيم الإسلامية وتحقيرها حَتَّى يتم لهم إفساد أبناء المسلمين وتحللهم ثم توجيههم لخدمة مصالحهم.

ه. إزالة الثقة بعلماء وأعلام الأمة الإسلامية، وذلك لقطع الصلة بين المسلمين وماضيهم ، وفي المقابل تمجيد الشخصيات الغربية وتعظيمها ليسهل التأثير والانقياد لهم

3 :نشأة الاستشراق

لا يخفى على باحث أن الاستشراق أول ما شبَّ وترعرع كان في كَنَفِ الكنيسة في القرن الثامن الميلادي بهدف دراسة «العدوّ»-إن صح التعبير-، لكن مع ذلك كان الإمبراطور شارلمان (814-742م) وحفيده شارل (877-823م) معجبَيْن بالحضارة العربية الإسلامية، وأرادا لبلادهما أن تنهض وتحذو حذو المسلمين في تقدّمهم وعلومهم، فأسّسَا المدارس المختلفة والمجامع العلمية لتعليم الأوروبيين العلوم العربية الإسلامية، وتبعهما البابا سلفستر الثاني (930-1003) الذي أمر بترجمة الآثار العقلية العربية في مختلف العلوم إلى اللغة اللاتينية. أمّا الحروب الصليبية فقد نبهت الغرب إلى الحضارة العربية والإسلامية، لكنها بالوقت نفسه زادت التعصّب الديني، فَرَاحَ الأوروبيون يتعلّمون العربية ويدرسون الإسلام، لا حبًّا في العرب والحضارة الإسلامية، وإنما رغبة في محاربتهما. ثم تغيّر الحال مع ظهور أول مطبعة عربية في إيطاليا سنة 1514م، مما دفع بحركة الاستشراق إلى مجالات أوسع وأكثر شمولًا، ولم يأتِ القرن الثامن عشر الميلادي إلا والاستشراق قد وطّد أركانه وحدّد معالمه، وقد أسهم في ازدهاره ضعفُ الدولة العثمانية، وسيطرةُ الاستعمار على الدول العربية.

وبهذا نلحظ أنّ الاستشراق لم ينشأ بغاية علمية بحتة، ولم تقتصر أهدافه على العلم فقط، فقد كان له أهداف دينية واقتصادية وسياسية وعلمية كذلك، كما أنه مرّ بمراحل وتطوّرات، جعلت أهدافه تتمايز بين مرحلة وأخرى، وبالتالي فإنّ نتاجه أيضًا يتمايز بين مرحلة وأخرى، لكن ما لا يمكن إنكاره هو أن كلّ مرحلة تركت آثارها على عموم الاستشراق، وأسهمت في بلورة ماهيته وتكوينه.

لا شك أن تاريخ الدراسات الاستشراقية - خاصة تلك المتعلقة بالشرق الإسلامي وحضارته - قديم، غير أن آراء العلماء والباحثين تتباين بشأن تحديد البدايات التاريخية لتلك الدراسات، وتتجه أكثر الآراء إلى تحديد فترة زمنية، وليس إلى تحديد سنة بعينها لبداية الاستشراق.

يقول السباعي: "لا يُعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.

ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسي "جربرت" الذي انتُخب "بابا" لكنيسة روما عام 999م، بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده، و"بطرس المحترم 1092 - 1156"، و"جيرار دي كريمون 1114 - 1187".

وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلا بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة "بادو" العربية، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية - وهي لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ - واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب، وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسات قرابة ستة قرون".

وهناك من الباحثين من يرى أن بداية الاستشراق الأوربي كانت في القرن الثالث عشر الميلادي؛ حيث صدر قرار مجمع "فيينا" الكنسي عام 1312م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية.

ومن الباحثين من يذهب إلى القول بأنه بدأ في القرن العاشر الميلادي.

بينما يذهب البعض إلى أنه بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي؛ حيث تمت فيه ترجمة القرآن إلى اللاتينية لأول مرة عام 1143م بتوجيه الأب "فيزابل"، وفي هذا القرن أيضا أُلف أول قاموس لاتيني عربي.

وقد جعل "نجيب العقيقي" مؤلفه عن الاستشراق والمستشرقين - والذي يقع في ثلاثة أجزاء - سجلا لحركة الاستشراق على مدى ألف عام، بدءًا من القرن العاشر الميلادي؛ حيث أخذ يرصد طلائع المستشرقين منذ ذلك التاريخ، فذكر في مقدمتهم "جربر دي أورلياك، الذي انتُخب حبرا أعظم باسم "سلفستر الثاني 999 - 1003" فكان أول بابا فرنسي، ثم ثنى بـ"قسطنطين الإفريقي" المتوفى عام 1087م، وبعده "أوجودي سانتالا"، وغيرهم حتى الأسقف "جويستنياني" المولود عام 1470م، و"ليون الإفريقي 1494 - 1552"

ويذهب أحد الباحثين إلى أن بداية الاستشراق تعود إلى منتصف القرن الثامن الميلادي بعد فتح الأندلس عام 711م، فيقول: "وهناك أدلة قاطعة على أن الاستشراق قد نشأ حقا في منتصف القرن الثامن الميلادي في الأندلس... إلى آخر كلامه

وإذا كانت الآراء حول نشأة الاستشراق وبداية مسيرته لم تكن متفقة فيما بينها - على نحو ما أشرنا -؛ فإنه يمكننا أن نقرر مطمئنين أن ظهور الاستشراق لم يتأخر عن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، حيث كان النشاط العلمي للمسلمين في الأندلس إبان فتحهم لها مصدر ولادة الاستشراق، وباعث انطلاقته.

المحاضرة الثانية : المستشرقون ومناهجهم في دراسة علوم القرآن الكريم

فقد اهتم المستشرقون بدراسة علوم القرآن والتفسير اهتماما بالغا على اعتبار كونها علوما خادمة للقرآن ومعينة على فهم مقاصده وأغراضه , ولاشك أن القرآنيات تشكل المجال الخصب الذي تواردت عليه أقلام كثير من المستشرقين سواء بالدراسة والبحث أم بالتحليل والنقد . وقد استأثرت الدراسات الاستشراقية بمزيد اهتمام الباحثين المسلمين في العقود الثلاثة الأخيرة , وانصب جانب كبير من هذا الاهتمام على مناقشة تلك الدراسات والرد عليها , وتفنيد مضامينها ذات الابعاد التشكيكية في معطيات الإسلام وتعاليمه السامية.

لكن الدارسين من المستشرقين للقرآن الكريم ليسوا سواء , فقد ظهرت دراسات استشراقية تنتقد افتراءات ومواقف المستشرقين من الإسلام وكتابه وسنة رسوله . ولعل من أبرزهم (هنري ستوب) الذي انتدب نفسه للدفاع عن الرسول الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم من تشويهات القوم وتبرئة الإسلام من اتهامات وشبه المستشرقين.

أ- مفهوم المنهج الاستشراقي

المنهج لغة : مصدر من نَهَجَ يَنْهَجُ منْهَجَاً ومنْهاجاً . يقول ابن منظور : نَهْج طريقٌ نَهْجٌ بَيّنٌ واضحٌ , وهو النَّهْجُ ...والجمعُ نهجاتٌ ونُهُجٌ ونُهُوجٌ .. ومَنْهَجُ الطريق وَضَحَهُ . والمنهاج : كالمنهج . وفي التنزيل : (لكل جعلنا شرعة ومنْهاجا) .واسْتَنْهَجَ الطريقُ : صار نَهْجاً . وفي حديث االاستشراق لغة :مشتق من الشرق , وبالأخص الشرق العربي الإسلامي.

ويعرفه القاموس الفرنسي بأنه : مجموعة المعارف التي تتعلق بالشعوب الشرقية ولغاتهم وتاريخهم وحضارتهم.

واصطلاحا : هو مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة , ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة.
وأما المستشرق : فهو " الباحث في فرع من فروع المعرفة التي تتعلق من قريب أو من بعيد بهذا الشرق , ويسمى مستشرقا. "
ويقول مالك بن نبي : " إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية . ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى بالطبقات على صنفين:
-1من حيث الزمن : طبقة القدماء مثل جربر دورييالك , والقديس توماس الإكويني , وطبقة المحدثين مثل كاره دوقو وجولد تسهير.
-2من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية , وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها."

ب- المناهج الاستشراقية في بحث علوم القرآن وقضاياه:

كان للقرآن الكريم مركزاً جوهرياً في الدراسات الاستشراقية التي بدأت بترجمته لأهدافٍ دينية معادية مكشوفة ومعلنة مثل ترجمته الأولى إلى اللغة اللاتينية التي أشرف عليه (بيتروس فينيرا بيليس) الملقب ب (بطرس المبجل) رئيس دير (كلوني) , ولا يخفى علينا الغرض الأساس من هذه الترجمات هو دراسة القرآن الكريم وفق مناهج معينة ساروا عليها بما تخدم آراءهم وأفكارهم ورغباتهم.
ولعل من أبرز المناهج الاستشراقية في بحث علوم القرآن وقضاياه كانت كالآتي:

المنهج الأول : منهج التشكيك فيما هو قطعي

لقد انساق المستشرقون المعاصرون مع أسلافهم في اتباع منهج الشك والمبالغة في إثارة الشكوك حول الوقائع التاريخية الثابتة، والروايات الصحيحة المرتبطة بتاريخ القرآن وعلومه، واعتمدوا في ذلك على عملية الانتقاء بطريقة مغرضة وهادفة إلى ما يصبون إليه من نتائج عكسية، كما أن عدم ثقتهم في صحة النص القرآني دفعهم إلى الشك في أمانة نقله وسلامة تبليغه، إضافة إلى الشك في جمعه وترتيبه، وهكذا يدعي كثير من المستشرقين أن النص القرآني الذي جاء به محمد قد نالته - بعد إفضائه به إلى الناس - تعديلات بالزيادة والنقصان خاصة في صورته المكتوبة ، ووجدوا في موضوع اختلاف المصاحف الخاصة التي كانت بأيدي بعض الصحابة ميداناً يخبُّون فيه ليشفوا رغبة في صدورهم: هي زلزلة العقيدة وفتح أبواب الشكوك والارتياب.
وهؤلاء المستشرقون يعرفون أن الشك في نص يوجب الشك في آخر؛ ولذلك فهم يلحون في طلب روايات الاختلاف، وينقلونها في غير تحرز، ويؤيدونها غالباً، ولا يمتحنون أسانيدها، ولا يلتفتون إلى آراء علماء المسلمين فيها.
وقد جمع المستشرق الإنجليزي آرثر جفري الاختلافات المنسوبة إلى المصاحف الفردية لبعض الصحابة أمثال ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وحفصة، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت، وغيرهم - كما جمع الاختلافات المنسوبة إلى بعض مصاحف التابعين، وقد جمع ذلك من مختلف المصادر القديمة التي احتفظت بالروايات الآحاد والشاذة المنسوبة إليهم، وبخاصة تفسير الطبري الذي استقصى الشيء الكثير من ذلك.
ومع أن بعضهم لا يجدون مناصاً من الاعتراف بأن بعض الاختلافات تبدو مستحيلة من الناحية اللغوية، وبعضها الآخر يشعر أنها مما اخترعه بعض اللغويين الذين نسبوها لهؤلاء الصحابة والتابعين، فإنهم يصفون مصحف عثمان رضي الله عنه بأنه أقرب المصاحف إلى الأصل ، ولا يقولون إنه الأصل الموثوق به نفسه، فهم يتحاشون الاعتراف بأن القرآن الكريم قد جُمع وفق منهج علمي رصين قوامه التوثيق والدقة والتثبت.

المنهج الثاني : الانتقاء في استعمال المصادر:

لا شك أن فعالية المنهج المتبع في أية دراسة، تتوقف على قيمة المصادر والروافد المعتمدة ؛ إذ هي القاعدة المغذية والمادة الخام التي ترتكز عليها الدراسة ، فكلما كانت المصادر رئيسة وأصيلة وذات علاقة مباشرة بالموضوع ،كانت الدراسة أقرب إلى حصول المراد المنشود والمبتغى المقصود من طرف الباحث.
وفي إطار البحث الاستشراقي يتبين أن المنهج المتبع في انتقاء المصادر المعينة على بحث الموضوعات المرتبطة بالقرآنيات يتنوع ويختلف تبعاً لطبيعة الموضوعات المطروقة من جهة، ولمدى موضوعية المستشرق وأمانته العلمية أو حياده على الأقل في توظيف تلك المصادر والنقل عنها من جهة ثانية.
وسأذكر فيما يلي بعض النقاط التي تبرز لنا الخلل المنهجي الذي ينال أحيانا دراسات المستشرقين في هذا المضمار , مع أن بعض دراسات المستشرقين في القرآنيات ليست كغيرها _ لا لشيء _ إلا لكونها منصبةً على موضوع يرتبط بمسألة الوحي المنزلَ على رسول الله الذي لا يؤمن به الباحث، ولا يمكن أن يتعاطف معه مبدئياً، وبالتالي لابد من أن تؤثر فيه قناعاته الدينية في البحث.
ولعل أبرز مواطن الخلل التي يمكن الإشارة إليها ما يلي:
1- اعتماد عدد معين ومحدود من مصنفات علوم القرآن دون غيرها.

وهذا أمر يمكن أن يلاحظه كل من تتبع بدقة بعض دراسات المستشرقين في القرآنيات، فعدد المصنفات العربية المتعلقة بعلوم القرآن المعتمدة من طرف المستشرقين محدودة جدا، وهي في معظمها كتب جامعة لم تتحر الصحة والنقد والرواية السليمة وهكذا نجد أن ولدكه، وبيل، وبلاير، وبورتون في جمع القرآن الكريم لا يتجاوزون كتب المصاحف لابن أبي داود ، والإتقان للسيوطي، والفهرست لابن النديم، في حين لا نجد عندهم اعتمادا يذكر على الروايات الصحيحة الواردة في كتب الصحاح والسنن أو في مقدمات المفسرين . فاقتصروا على دراسة تفاسير محددة (الطبري – الزمخشري-ابن عربي..(ولم يستقصوا بيان مذاهب التفسير كله وقد يكون من حق الباحث أن يسلك هذا الطريق طوال بحثه، وألا يؤمن ببعض المنهج ويكفر بالبعض الآخر، ولو فعل المستشرق ذلك واستقصى جوانب التفسير المذهبي كلها من تشريعية فقهية، إلى لغوية نحوية، أو أثرية موسوعية من خلال جميع كتب التفسير التي كانت – على الأقل- في وقته لتكشَّفت له حقيقة مغايرة، وهي أن النص القرآني خصيب متجدد وثري. فليس سهواً إذن أن يغفل جولد تسيهر عن آثار أخرى في التفسير ، وإنما هو التجاهل المتعمد ليبدو محصول المسلمين من التفسير في النهاية رذاذا متناثر اً فرقته الأهواء الحزبية والفكرية
2- انتقاء الروايات الضعيفة والمنقطعة من مصادر علوم القرآن.
يكاد يتفق منهج المستشرقين العام في الدراسات القرآنية على تعمد اختيار الأخبار الضعيفة والروايات المنقطعة في بطون المصادر العربية قصد بناء أحكامهم عليها، على مقاصد وأغراض معينة. ولقد وجد المستشرقون في كتب معينة ما أفادهم في مبتغاهم هذا.
توليد النصوص والشواهد بتصيّدها من كتب الأدب والتاريخ وغيرها.
يختلف البحث الاستشراقي في حق القرآنيات عن المنهج الإسلامي المؤسس على ضرورة اعتماد الموثوق من المصادر والمشهود له بالأولية والتميز , فالمصادر القرآنية الموثوقة ليس فيها ما يسعفهم في تسويغ ما يَصْبون إلى تأكيده من أحكام مغرضة ، واستنتاجات مغلوطة وخاطئة أريد لها أن تكون كذلك، ولهذا يلجئون إلى مصادر أخرى بحثاً عما يعينهم على بلوغ مأمولهم فيجدون بغيتهم في كتب الأدب والتاريخ وغيرها دون أدنى اكتراث بما يشكله اعتماد تلك المصادر في قضايا جوهرية ترتبط بالدراسات القرآنية, والواقع أن كثيراً من المستشرقين ودعاة التغريب قد ألحوا على اعتماد مثل هذه الكتب , وأولوها الاهتمام البالغ وأعادوا طبعها وأذاعوا بها , وحرضوا الباحثين من التغريبيين على اعتمادها مصادر ومراجع ؛ وذلك لأنها تفسد الحقائق وترسم صورا غير صحيحة ولا موثوقة عن واقع الأمور.
3- إهمال المصادر القرآنية الأصيلة والاحتفاء بدراسات المستشرقين السالفة.
يبدو أن من أخطاء منهج المستشرقين في اعتماد مصادر ومراجع معينة تعمُّد عدم الاكتراث بموثوقيتها وأولوية بعضها؛ لهذا نجد أن المستشرق الذي يسعى إلى فرض فكرة معينة وتكريسها لا يلقي بالا إلى المصادر التي ترمي مضامينها إلى ما يذهب إليه ، وهو يعمد في الغالب إلى تقديم كتب ثانوية وغير موثوقة على ما هو معروف من كتب موثوقة , وهذا المنهج الخاطئ كفيل بأن يؤدي إلى نتائج مغلوطة وخاطئة ,ويبدو أن من أعظم أخطاء هذا المنهج المتمثل في عدم ترتيب المصادر حسب موثوقيتها وقيمتها هو تقديم كتب المستشرقين على غيرها من كتب العلماء المسلمين الأوائل في نقل الروايات، والنصوص القديمة.

المنهج الثالث : منهج الأثر والتأثر

هذا المنهج يعني الأخذ بالنَّزعة التأثيرية، وهي نزعة دراسية يأخذ بها معظم المستشرقين الذين اعتادوا رد كل عناصر منظومة الإسلام بعد تجزئتها إلى اليهودية والنصرانية.
لقد كان المستشرقون القدامى أكثر اهتماماً بهذه النزعة في كتاباتهم، حتى إن أحدهم وهو اليهودي أبراهام غايغر أصدر عام 1833م كتابا يحمل عنوانا مثيرا هو: ((ماذا أخذ القرآن عن اليهودية؟)) وقد كان هذا الكتاب إيذاناً ببداية حقبة جديدة في البحث الاستشراقي تهدف إلى التنقيب عن كل ما قد يبدو للمستشرقين في القرآن منقولاً ومستقى من اليهودية، وقد أقبلت أبحاث هؤلاء تفكك مضامين القرآن الكريم؛ لتردها إلى عناصر توراتية _ يهودية مزعومة.
ومما لاشك فيه أن الأحكام التعسفية المرتبطة بهذا المنهج تكون حاضرة في كتابات المستشرقين كلما وجد تشابه بين الموضوعات القرآنية والموضوعات المبثوثة في الإنجيل أو التوراة. وهكذا تكون القصص القرآنية مأخوذة _ في زعمهم _ عن القصص اليهودية والنصرانية. ويذهب بعض المستشرقين إلى أن كثيراً من الأعلام الواردة في القرآن ذات أصل عبراني، حتى إن أحدهم وهو المستشرق الفرنسي اليهودي أندري شوراكي قد أصدر منذ أكثر من عشر سنوات ترجمة لمعاني القرآن انتقدها المستشرقون قبل غيرهم من المسلمين، وقد احتفظ فيها بالأصول العربية لبعض الألفاظ من غير ترجمة؛ إمعاناً منه في بيان أصلها العبراني كما يزعم.
كما أنه يعطي كثيراً من الألفاظ القرآنية دلالات غريبة باللغة الفرنسية، وعند البحث العميق يتبين أن الرجل يريد القفز على المعاني المعروفة والمتداولة - والتي اتفق عليها مترجموا معاني القرآن - إلى معان شاذة هي في الأصل إحدى المعاني اللغوية لأصل اللفظة، لكن لا يصلح استعمالها لكي تؤدي وظيفة الترجمة المناسبة للفظة القرآنية.
هذا المنهج الذي يجعل القرآن متأثراً ومقتبساً من التوراة والإنجيل، ينفي بطبيعة الحال كل أصالة للدين الإسلامي ولربانية المصدر القرآني. والمستشرقون عندما يطبقون هذا المنهج على القرآن فإنهم يرجعون أسسه ومبادئه ومضامينه إلى أصول

يهودية ونصرانية.
إن تشبع المستشرقين بمنهج الأثر والتأثر راجع إلى كون هذا المنهج قد طبق بصورة صارمة في بيئتهم، ذلك أن النهضة الأوروبية قد تأسست على الحضارة اليونانية التي تعدُّ الميراث القديم للفكر الغربي، وهكذا كلما أنشئ مذهب فكري وديني جديد وجد له نظير في الحضارة اليونانية القديمة، ومن خلال هذا تم تطبيق هذا المنهج على كل معطيات التراث الإسلامي ومنها حقل القرآنيات، وذلك من غير اكتراث بأصالة التراث الإسلامي ذي الأصول والأسس الواضحة المؤسسة على معايير دينية أصيلة، مستمدة مباشرة من الوحي الإلهي المنَزل على محمد

المنهج الرابع : المنهج الافتراضي.
إذا كان المستشرقون في منهجهم التشكيكي في الوقائع القطعية يشككون-كما سبق أن رأينا- فيما هو أدنى إلى الصدق، فإنهم في أخذهم بالمنهج الافتراضي يصدقون ما هو أدنى وأقرب إلى الكذب.
ولعل أبرز حقل قرآني مارس فيه المستشرقون هذا المنهج هو ما تعلق بترتيب الآيات والسور في القرآن، إذ نجد معظم المستشرقين قد أبدوا في مسألة ترتيب الآيات على وجه الخصوص موقفاً مخالفاً لما هو مقرر لدى المسلمين من كون ترتيب الآيات أمراً توقيفياً لا خلاف فيه فهم إذن، وانطلاقاً من منهجهم التاريخي الذي يفترض ترتيباً منطقياً يقبله العقل البشري، حاولوا افتراض ترتيبات جديدة يحكمها الهوى المجرد، وهذا الترتيب الجديد الذي قادهم إليه سلوكهم للمنهج التاريخي قد علق عليه المستشرقون أخطر النتائج في حقل القرآنيات، واتخذوه أكبر مدخل للطعن في صحة القرآن، وتضارُب أحكامه وخضوعه إلى الظروف الزمانية والمكانية.
فالمستشرق الانجليزي آرثر جفري يأتي مثلاً بفرضية حول سورة الجن فيقول: ((إن الآيات الخاتمة للسورة تختلف كثيراً في الشكل والأسلوب، وتظهر وكأنها قطعة غريبة وضعها جامعوا القرآن أو كتبته. ((
فجفري يريد أن يؤكد للقارئ وجود اختلاف وعدم تناسب وتناسق بين الآيات الخاتمة (يرمي بدون شك إلى الآيات 19 فما بعدها من السورة) والتي قبلها من خلال التلميح _ بشكل عرضي وكأنه أمر طبيعي _ إلى أن كتبة الوحي هم الذين أضافوا المقطع الذي لا يتناسب –حسب زعم جفري - مع الآيات السابقة، وهذه طريقة معروفة لدى المستشرقين في مخاطبة قرائهم.
ولو رجع جفري إلى كتب التفسير، وكتب علم التناسب القرآني؛ لتبين له أن لاضطراب ولا اختلاف بين طرفي السورة.
وهذا رودويل الذي انطلق من كون الآيات التي نزلت مع أول الوحي تتسم بالقصر قد حاول أن يضع على أساسها ترتيباً جديداً للسور المختلفة، فنراه مثلاً يعلق على سورة الملك بقوله: (من الواضح أن الآيات من (8) إلى (11) قد نزلت متأخرة عن بقية السورة، ثم ألحقت بها؛ لأن كلاً منها أطول من بقية آيات السورة.
ويستعمل المستشرق الفرنسي أنري ماسيه مصطلح (الافتراض) حين ينسب لعثمان بن عفان هدفاً سياسياً وهو يأمر بجمع القرآن، فيقول: (يمكن الافتراض أنه كان لعثمان هدف سياسي بعمله هذا يعادل الهدف الديني، فقد وصل إلى الخلافة بجهد، وكان أن عَزَّز مركزه بإقراره نصاً لا يتغير للكتاب المقدس).
ويكفي للرد على افتراضاتهم أنه إذا كانت تلك الآيات لم تنْزل في الوقت الذي أنزلت فيه بقية السورة، فما هو إلا دليل صريح على أن ما جاء في المصحف من ترتيب للآيات على غير الترتيب التنْزيلي إنما هو من عند الله الحكيم الخبير، وكفى.
ولا شك أن الردَّ على مثل هذه الافتراضات والتصورات لا يحتاج إلى جهد كبير، ولاسيما أنها قد بلغت من الشذوذ إلى حد إنكارها واستغرابها من قبل المستشرقين قبل غيرهم من المسلمين. فكفى الله المؤمنين القتال.
إن مما لا شك فيه أن للمستشرقين في كل موضوع من موضوعات القرآن التي يناقشونها ويدرسونها هدفاً وغاية يدور فلكها حول الهدف الأكبر الذي هو إثبات بشرية القرآن بكل الوسائل. وإزاء موضوع ترتيب آيات وسور القرآن الكريم ، يتضح أن هدفهم من افتراض ترتيبات جديدة ومحاولات مبتكرة على بساط البحث والدرس يرمي إلى إظهار التناقض المزعوم في القرآن سواء من حيث الموضوع أو من حيث الأسلوب.
المنهج الخامس : المنهج الاسقاطي
عند دراسة القرآن الكريم وعلومه , مارس المستشرقون عملية الإسقاط متأثرين بخلفياتهم العقدية وموروثاتهم الفكرية , ومندفعين بدافع نفسي يهدف الى رمي القرآن الكريم بما ثبت في حق كتبهم المقدسة ودياناتهم المحرفة , محاولين بذلك الانتقاص من قدر هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد حاول الباحث تصنيف هذه العلميات الإسقاطية على القرآن الكريم وعلومه من قبل أساتذة الغرب بالنظر إليها من زاويتين:
الأولى : بالنظر الى موضوعاتها .ويمكن تصنيفها الى الموضوعات الاتية:
1- إسقاط المفاهيم الاستشراقية على التعريف بالقرآن الكريم.
2- إسقاط المفاهيم الاستشراقية على تاريخ القرآن الكريم.
3- إسقاط المفاهيم الاستشراقية على العقائد القرآنية.

4- إسقاط المفاهيم الاستشراقية على الشرائع القرآنية.
الثانية : بالنظر الى منطلقاتها المذهبية .ويمكن تصنيفها الى المنطلقات الآتية:
1- المنطلقات الدينية : وتشمل المفاهيم اليهودية والمفاهيم النصرانية.
2-المنطلقات الفكرية : وتشمل المفاهيم المادية والمفاهيم الصوفية.
وجدير بالذكر ان عمليات الإسقاط في الجانب العقدي نالت اهتمام الأساتذة الغربيون بما لديهم من حيل إسقاطية , محاولين بذلك تشويهها أو تحريفها . لكن وعد الله ان يتم نوره ولو كره الكافرون.
المنهج السادس: التركيز على المرحلة التأسيسية للحقل القرآني
إن من أبرز ما تميز به الاستشراق المعاصر عن الاستشراق القديم اهتمامه بشكل دقيق ومفصل بالمرحلة التأسيسية للعلوم القرآنية وعلى رأسها علم التفسير، فبعد الاهتمام البالغ بمراحل جمع القرآن وتكوين مصحف إمام، أخذ الاهتمام الاستشراقي يتوجه إلى بحث البدايات الأولى لظهور علم التفسير مع جيلي الصحابة والتابعين، ويبدو الهدف الرئيسي من كل ذلك تحطيم أسس العلوم القرآنية وركائزها المتمثلة في المرويات المتصلة بالصحابة والتابعين؛ قصدَ الخلوص إلى نتيجة مفادها أن التراث التفسيري لم يدون إلا في مرحلة متأخرة عن العصور الأولى. وقد نهج المستشرقون في كل ذلك طرائق عدة تمثلت في التشكيك في الروايات الصحيحة والتقليل من أهمية أعلام علم التفسير ومكانتهم، كابن عباس

ومجاهد، ورواد الجمع القرآني، كزيد بن ثابت وأبي بكر وعثمان.
لقد تبين لهؤلاء المستشرقين أن العلوم الإسلامية وعلى رأسها العلوم القرآنية قد استوت معالمها ومرتكزاتها على أساس وبناء صَرح المرحلة التأسيسية في عهد الصحابة والتابعين؛ من أجل ذلك تفتقت أذهان القوم على التفكير في إعادة بحث ودراسة تلك المرحلة التي يرتكز عليها تاريخ القرآن بكل أطواره بصورة تهدف إلى تحطيم أسسها وإثارة مختلف الشبهات حولها.
أما فيما يتعلق بجمع القرآن فإن المستشرقين المعاصرين لم يتركوا مرحلة من مراحله الثلاث إلا ونسجوا حولها سياجاً من الافتراءات، فالرسول لم يجمع القرآن في مصحف؛ لأنه لم يكن يفكر إلا في الحاضر، ولأنه أيضاً كان يتوقع قرب قيام الساعة فلا داعي إذاً لجمعه ، وزيد بن ثابت لم يكن ذلكم الرجل المؤهل والموثوق بأمانته في مهمة جمع القرآن في عهد أبي بكر، ومصاحف الصحابة الخاصة التي انفردوا فيها بقراءات شاذة كانت أكبر دليل على عدم تواتر القرآن وموثوقيته إلى غير ذلك من الشبهات.
أما ما وُجِّه إلى زيد بن ثابت من اتهام فلا أساس له من الصحة، إذ لا يخفى مدى ما بلغه من الثقة والضبط منذ أن كان كاتباً للوحي في عهد رسول الله إلى أن توفي عام (45ه)، وقد شهد كثير من الصحابة بفضله وجلالة قدره.
وعلاوة على ذلك فإن زيداً قد شهد العرضة الأخيرة للقرآن في حياته ، كما أنه كان من أشهر الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن ووعياً لحروفه وأداءً لقراءاته. أما مصاحف الصحابة الخاصة فقد كانت مخالفة لسواد المصاحف التي أجمعت عليها الأمة خلال الجمع العثماني، وكان أصحابها واعين لتلك القراءات الشاذة والتفسيرات المدرجة.
المنهج السابع: منهج النفي
يعد هذا المنهج معلماً بارزاً في كثير من أبحاث المستشرقين التي تتناول المرويات الصحيحة المرتبطة بالدراسات القرآنية وعلوم القرآن على وجه الخصوص، ثم إنهم ينفون العديد من الروايات لهذا السبب أو ذاك، بينما نجدهم يتشبثون – بالمقابل- بكل ما هو ضعيف شاذ، ويشير أحد أبناء جلدتهم وهو المستشرق الفرنسي إميل درمنغهم إلى هذا الأمر قائلاً:
"من المؤسف حقاً أن يكون قد غالى بعض هؤلاء المتخصصين من أمثال موير ومرجليوت ونولدكه وسبرنجر ودوزي وغريم وجولدزيهر وغيرهم في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم ونفي على الخصوص، ولا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة"....
إن منهج النفي يهدف إلى نفي الحقائق القرآنية والوقائع التاريخية المرتبطة بنُزوله وجمعه وغير ذلك، ويتم ذلك من خلال إثارة الشكوك والمبالغة في النقد إلى حد الإلغاء والنفي الكيفي لكل ما يتعارض مع وجهات النظر الاستشراقية.
فهذا سبرنجر مثلاً يرى أن اسم النبي قد ورد في أربع سور من القرآن هي آل عمران والأحزاب ومحمد والفتح، وهي جميعها سور مدنية، ومن ثم فإن لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة. وبهذا ينفي ويُلْغي بسهولة كل الروايات التاريخية والسنن المأثورة التي ورد فيها ذكر اسم محمد في الفترة المكية، لا لشيء إلا لكون الاسم لم يرد في القرآن المكي ، ومعلوم أن كثيراً من المستشرقين ينفون أحداثاً ووقائع معينة من السيرة النبوية ما دامت لم ترد في القرآن الكريم، وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا ما مكنهم من عملية انتقاء متعسفة ذات طابع هدمي وإقصائي يرمي إلى نفي كل رواية أو واقعة لا يرد ذكرها أو الإشارة إليها في القرآن الكريم.
من جهة أخرى يعمد كثير من المستشرقين إلى تجاوز ونفي الوقائع التاريخية المرتبطة بعلوم القرآن والتي أجمع عليها علماء الإسلام وذلك من خلال اقتناص وتصيد روايات ضعيفة ومنقطعة وبناء أحكام باطلة عليها، ولا شك أن الوقوف عند الروايات الضعيفة التي لا تتفق مع الروايات والوقائع الصحيحة يكون مدعاة لنفي ونقض ما هو صحيح وثابت أو إدخال

الشك والارتياب _ على الأقل _ في النفوس من خلال المبالغة في نقد الصحيح إلى حد إلغائه ونفيه.
ومما يدلُّ على ذلك إثارتهم الخلاف حول أول من جمع القرآن، وذلك بالاستناد إلى روايات منقطعة . وقد يعمدون إلى ضرب بعض الروايات ببعض؛ قصد كشف تناقضها وتعارضها حسب زعمهم، وبالتالي التشكيك في مصداقية النص القرآني. وفي سبيل ذلك يستند المستشرقون إلى بعض الأحاديث الضعيفة من أجل استنتاج كون القرآن قد سقطت منه بعض الآيات أثناء كتابته وجمعه ، وقد يسعون إلى إحداث نوع من البلبلة والتشويش من خلال استعراض مختلف الروايات الضعيفة في الموضوع الواحد كما هو الشـأن في أول من جمـع القرآن . ولا شك أن كثرة اعتماد ورجوع بعض المستشرقين أمثال نولدكه , وبلاشير , وولش , إلى الكتب التي تَعُج بالروايات الضعيفة والمنقطعة والمتناقضة ، تبين لنا طبيعة المنهج المسلوك لدى المستشرقين الذي يتجلى في تصيّد ما يخدم آراءهم ؛ من أجل نفي ما هو صحيح ومجمَع عليه.

المحاضرة الثالثة: وسائل الاستشراق

لجأ المستشرقون من أجل تحقيق أهدافهم إلى وسائل عدة أهمها:

1- تأليف الكتب في الموضوعات الدراسات العربية والدينية ، فقد ألفوا في التاريخ العربي الإسلامي وفي الشريعة والعقيدة ، وفي تاريخ الأدب العربي ، وفي التصوف والأخلاق ، وفي العلوم المتعلقة بالقرآن والسنة ، وأكثر مؤلفاتهم مشحونة بالكاذيب والطعون في الإسلام ومملوءة بالشبهات والشكوك ، وقد بلغت أعداد الكتب التي ألفوها منذ القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين مايقرب من ستين ألف كتاب
2- إصدار الموسوعات والمعاجم بلغات مختلفة ، وقد اعتبرت هذه المعاجم والموسوعات مرجعا لكثير من طلاب الدراسات العربية والإسلامية ، ومن هذه الموسوعات: دائرة المعارف الإسلامية ، المعجم العربي اللاتيني لجورج فيلهم فرايتاك ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، المعجم المفهرس لألفظ الحديث النبوي لعدد من المستشرقين.
3- إلقاء المحاضرات وعقد الندوات في الجامعات والمعاهد والمؤسسات العلمية في العالم الإسلامي والذين يتم دعوتهم في الغالب عن طريق تلامذتهم وعملائهم ، والتدريس في الجامعات الأوربية والأمريكية وخاصة في أقسام الدراسات العربية والإسلامية التي أنشأوها في بلاد الغرب لاستقبال أبناء العالم الإسلامي ولتخريج الغربيين العاملين في النشاط الدبلوماسي بالسفارات والقنصليات لبلدانهم ، والذين يلتحقون بمراكز البحوث والدراسات المهتمة بالشرق.
4- إصدار المجلات الخاصة ببحوثهم حول الإسلام والمسلمين.
5- جمع المخطوطات وفهرستها وتحقيقها ونشر الكثير منها وخاصة تلك التي تحمل الأفكار الضالة والعقائد المنحلة ، وقد بلغت المخطوطات العربية في المكتبات الأوروبية عشرات الآلاف
6- الترجمة: قام المستشرقون بترجمة المئات من الكتب والمؤلفات العربية واسلامية إلى اللغات الأوروبية ، فترجموا القرآن الكريم ووضعوا في الهوامش والمقدمات تصوراتهم الخاطئة للحقائق والمفاهيم الإسلامية
7- نشر المقالات والبحوث في الصحف والمجلات الإسلامية وقد تمكنوا من استئجار عدد منها لنشر أفكارهم وآرائهم المعادية للإسلام
8- عقد المؤتمرات الاستشراقية لمدارسة طرق ووسائل الاستشراق وأهدافه وتبادل الرأي ، وقد كان أول مؤتمر استشراقي في باريس سنة 1873
9- التدريس في الجامعات والمدارس التي أقامتها الدول الأوربية في ديار المسلمين والتي تتبنى مناهج المستشرقين وآرائهم
10- تربية عدد من أبناء المسلمين وخاصة في جامعتاهم ومعاهدهم ومراكزهم العلمية على أفكارهم المعادية للإسلام ومن ثمّ استخدامهم معاول هدم للإسلام من الداخل

المحاضرةالرابعة :أهم أعلام المستشرقين ممن عنوا بدراسة القرآن الكريم:

1- ثيودور نولدكه (1836 - 1930) يعد شيخ المستشرقين الألمان. ولد عام 1836 في هامبورغ، أتقن العربية، العبرية، والسريانية. درس في غوتنغن وفيينا وبرلين وليدن. حصل على الدكتوراه عام 1856م وهو في سن العشرين عن تاريخ القرآن. عين مدرساً للتاريخ الإسلامي في جامعة جوتنجن عام 1861. وأستاذ التوراة واللغات السامية في كييل عام 1864. توفي عام 1930م , من تلامذته :كارل بروكلمان.

أبرز مؤلفاته : (تاريخ القرآن) في ثلاثة أجزاء . و (تاريخ الشعوب السامية) . و (هل كان لمحمد معلمون نصارى؟) . (وتراجم المسلمين) . كما عاون شبرنجر في كتابه (سيرة محمد)

2-آرثر جفري (1310 - 1379 هـ / 1892 - 1959 م) هو مستشرق أسترالي.

من مؤلفاته : (مصادر تاريخ القرآن) صدر بالإنجليزية في سنة 1937 م. و (الكلمات الدخيلة في القرآن) صدر بالإنجليزية . و (القرآن ككتاب ديني) صدر بالإنجليزية في سنة 1952 م.

3- توماس اكوي ناس ، القديس توما الإكويني (1225 - 1274 م) كان كاهن دومينيكان و فيلسوف و لاهوتي إيطالي من الكنيسة الكاثوليكية يعتبر ممثل للفلسفة الاسكولائية . من أشهر تلاميذ البرت الكبير في باريس ، وذهب وراء كولون في سنة 1248 و رجع الى باريس وبقي استاذا في اللاهوت . عارض الفلسفة اللاتينية و قضى اخر ايام حياته في نابولي.

يمتاز مذهب توماس الإكويني بالتفريق بين الفلسفة و اللاهوت حيث انه كان يعتبر أن الفلسفة تعتمد على العقل وحده لكن اللاهوت يعول على الوحى من غير انكار للعقل ، وبهذه الطريقة قرب بين الفلسفة و الدين. يثق بالعقل الذي يستطيع أن يبرهن على وجود الاله و صفاته و يوصل للمعرفة اليقينية. استعان بأفكار ارسطو و افلاطون و ابن رشد لأنهم عنده كانوا يعتمدون على العقل السليم .له مؤلفات كثيرة تتناول الفلسفة و اللاهوت و فسر معظم كتب ارسطو وشرح اجزاء من الكتاب المقدس و كتب في التربية و القانون. ولا زالت فلسفته حيه في التعليم الديني و عند طائفة من الفلاسفة المعاصرين مثل جيلسون و مارتيان.

4- إجناتس جولد سيهر (1850 - 1921 م) مستشرق يهودي مجري .يعتبر على نطاق واسع بين مؤسسي الدراسات الإسلامية الحديثة في أوروبا. تلقى تعليمه في جامعة بودابست، برلين، لايدن بدعم وزير الثقافة الهنغاري. أصبح جامعيا في بودابست في عام (1872). في العام التالي تحت رعاية الحكومة الهنغارية ، بدأ رحلة عبر سوريا وفلسطين ومصر، واستغل الفرصة لحضور محاضرات المشايخ المسلمين في مسجد الازهر في مدينة القاهرة. وكان أول يهودي في العالم ليصبح استاذا في جامعة بودابست (1894)، وممثل الحكومة الهنغارية وأكاديمية العلوم في مؤتمرات دولية عديدة. أصبح عضوا في العديد من من الجمعيات في هنغاريا وغيرها ، عين أمينا للجالية اليهودية في بودابست.

أول مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك في الحديث النبوي كان المستشرق اليهودي "جولد سيهر" الذي يعده المستشرقون أعمق العارفين بالحديث النبوي. ألف الكتب وكتب المقالات بهدف الطعن في السنة وليس البحث العلمي، ومكث سلطانه وسلطان مدرسته متسلطا على كثير من المستشرقين والذين ينتمون إلى هذا الدين . واعتبروا كتبه المرجع الأساس في دراساتهم للأحاديث والسنن ولم يخرج عن متابعته في كل ما قاله الا فئة قليلة جدا من المستشرقين المتأخرين عنه فقد تحرروا من متابعته وناقشوه في بعض ما قال ورأوا في أحكامه على السنة جورا وظلما.

وقد نقل عبد الحليم النجار كتاب «العقيدة والشريعة في الإسلام» لجولدتسيهر الى العربية.

5- أبراهام جيجر(1810 -1874 م) هو حَبْر يهودي ألماني تناول بالدراسة المشابه بين القرآن وبين الكتب المقدسة عند اليهود.

6- هنري ستوب : ولد هنري ستوب في انجلترا لرجل دين مسيحي بروتستانتي صاحب رأي ،فقد تمسك بعقيدة عدم وجوب تجديد العماد ومن ثم طرد من كنيسته وبلده.

لقد أثارت افتراءات المستشرقين شعور الدكتور هنري ستوب ،وأحرجت ضميره ،فانتدب نفسه للدفاع عن محمد وتبرئته من تشويهات وافتراءات القوم . وكم كان هذا الرجل شجاعاً إذ وقف ضد التيار الجارف في الغرب , لقد امتلأت روحه وعقله وضميره بالحرج أمام ركام الزيف من الخرافات والأساطير التي نسجها المسيحيون الغربيون حول الإسلام ورسوله ،وتوطنت عقول العامة والخاصة منهم ، وتجذرت في مشاعرهم ووجداناتهم حتى كادت أن تتميز كرهاً وخوفاً. فألف أول كتاب إنجليزي يدافع عن الرسول ورسالته ضد افتراءات المفترين , ويعد الوثيقة التاريخية الفريدة والنادرة التي ألفها د. هنري ستوب، أحد علماء القرن 17 م تحت عنوان (دفاع عن الرسول والإسلام)، وهو أول كتاب باللغة الإنجليزية، ولعله أول كتاب غربي قام بهذه المهمة النبيلة التي تفضح مواقف كثير من النصارى الأوروبيين من الإسلام ورسوله والذي خرج عن السياق النمطي المألوف الذي انزلق فيه كبار المستشرقين ، أمثال: دانتي وشكسبير وفولتير وغيرهم؛ لكن صاحبنا كان يتمتع بعقل حر وتفكير مستقل تمثل في

كراهيته للتقليد والجمود وتجافيه عن التعصب الأعمى والانغلاق على الذات، ما دفعه للاعتراف بالآخر وتقديره بأمانة وموضوعية كما هو في الواقع المتعين وليس كما تهوى الأنفس ويمليه الظن السيئ فإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً، فقد ألف كتابه في القرن (17) م، أي في عصر الجهالة في موقف الغرب من الإسلام.
ومما يؤسف له أن هذا الكتاب قد بقي ،لأمر ما ، مخطوطاً قرابة قرنين ونصف من الزمان ،إلى أن هيأ الله له نزيل لندن الهندي حافظ شيراني فقام على تحقيقه وتوثيقه ونشره في لندن سنة 1911،ثم أعادت تصويره مكتبة أكسفورد وكمبردج ونشرته دار Orientalia في لاهور سنة 1975م.

المحاضرة الخامسة: مناهج المستشرقين في الدراسات الأدبية واللغوية

1- الاستشراق واللغة العربية

الصلة بين اللغة والاستشراق صلة وثيقة حتى بالغ أحدهم فى هذا التقدير فذهب إلى أن" **الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة،** والمستشرقون ينطلقون في دراسة اللغة العربية وآدابها من المناهج التى تدرس بها لغاتهم فمن الناحية المنهجية الاستشراق يطبق على الاسلام ولغته وعلى المؤلفات العربية التى يشتغل بها المعيار النقدى نفسه الذي يطبقه على تاريخ الفكر فى بلاده، وعلى مصادره هو.

لقد أدرك الاستشراق بماله من معرفة بقوة تأثير اللغة العربية في السير والحركة والتقدم وبماله من صلة بعلومها وآدابها وفنونها وبماله من دراية لقرآنها وعروبتها وتراثها، فقرر أن يتناول السهم ليصوبه في قلب أصحابها ليرديهم قتلى، لقد كان فى تركيز الجهد الاستشراقي على دراسة الجوانب الحضارية الاسلامية أكبر عون في السيطرة على الأمة الاسلامية وتسييرها على النحو الذى يريدون، ولكن غرضا كهذا لا يتأتى تحققه مالم تدرس العربية دراسة مستفيضة بوصفها لغة الدين الاسلامى، وفى هذا يقول برنارد لويس" **وقد وجد الطلبة الإنكليز في الهند لدى دراستهم لغات مسلمى الهند ومدينتهم، أن أبحاثهم وتنقيباتهم تحتم عليهم دراسة العربية التى هى أساس الثقافة الاسلامية فى أى لغة من اللغات"**

فأقبل الاستشراق على دراسة لغة المسلمين وأعلن المستشرقون هجومهم على اللغة العربية بتلفيق الشبهات حول أصالتها فى التاريخ القديم والعصور العربية الأخرى

- اتهموها فى العصر الحديث أنها لغة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث وغير قادرة على مواكبة التقدم العلمى والتكنولوجي ووصل بعضهم الأمر إلى اعتبار اللغة العربية لغة ميتتة، مثلها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغة الأوروبية الحديثة

-وبأنها لغة دينية بمعنى أنها تستخدم في المجال الدينى وفيما يتعلق بالعبادة ولكنها لا تصلح كلغة للحديث والكتابة تشبيها لها ببعض اللغات الدينية القديمة والتي انحصر مجال استخدامها فى المجال الديني ولم يعد لها استخدام فى الحياة اليومية مثل السريانية وغيرها، وهو ما أقر به المستشرق "برينو" لطلابه في درس اللغة العربية حين قال" :**أتريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالي الذين حولك وأن تختبر المسلمين فى زيارتك لتعرف ما يهمك؟ لاتظن أنى سأعلمك لغة القرآن فهذه اللغة قد ماتت ولايتكلم بها أحد، فهى لاتينية العرب، وهى اللغة التى أنزل الله بها كتاب المسلمين ، وهى لغة الصلوات والاستغاثات والتمنيات أحيانا، وهى كذالك المستعملة فى جنة " محمد" وسأحبب إليك دراستها فى المستقبل إذا أرادت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحورالعين"**

-وصف المستشرقون اللغة العربية بالجمود وبأنها لغة بدوية لا تصلح للتعبير عن المصطلح العلمى الحديث وأنها السبب فى التخلف الحضارى لأنها غير قادرة على استيعاب الحضارة الحديثة، ويقابل هذا الذم في اللغة العربية الفصحى الثناء على اللغة العامية وعلى اللهجات العربية المختلفة ووصفها جميعا بالمرونة والسهولة والقدرة على التعبير عن المطالب الحديثة، ومدحوها كوسيلة تثقيف للجماهير العربية وللتخلص من الأمية المنتشرة بسبب صعوبة اللغة العربية الفصحى.

ومن أجل هذا قام الاستشراق بإدخال تدريس لهجات العرب المختلفة فى مدارسهم وجامعاتهم ومعاهدهم، وفي سنة 1880م ظهر كتاب " قواعد العربية العامية في مصر" لـ ولهام سبيتا الذى كان أول كتاب في العامية المصرية من الأجانب.

وظهر كتاب "المقتضب فى عربية مصر" لـ فيوت وباول اللذان اتجها فيه وجهة علمية لتسهيل دراسة العامية المصرية ،تلك التى ضاعت كرامتها على حد قولهما لتركها تنساب مفككة بدون ضوابط حتى أصبحت لاوجود لها كلغة مكتوبة ولم يفتهما أيضا أن يرددا الشكوى من صعوبة اللغة العربية الفصحى وخاصة حروفها الخالية من حروف الحركة.

وقد وضع المستشرق "ولهلم سبينا" عام 1880 -وكان مديراً لدار الكتب المصرية- كتاباً عن قواعد العربية العامية في مصر، ضمن مخطط مدروس في الهجوم على الفصحى، ونادى باتخاذ العامية لغة أدبية ، واقترح الكتابة بالحرف اللاتيني، كما نادى المستشرق "وليم ولكوكس" إلى أن يأخذ المصريون بأسباب الاختراع والإبداع، فدعا للكتابة والتأليف باللغة العامية، وجدد دعوته إلى هجر الفصحى عام 1926م، بعد أن صرّح في غير موطن أن الفصحى هي سر الترابط القومي بين العرب خاصة، والمسلمين عامة باعتبارها لغة القرآن. وفي شمال إفريقيا لم تدخر فرنسا جهداً في محاربة الفصحى فقد وضع مستشرقوها كتباً في دراسة اللهجات البربرية لتحل محل الفصحى، وكان على رأس هؤلاء المستشرق "لويس ماسينيوس" وقد انجرف مع هذه الدعوات عدد ليس بالقليل من أدباء مصر، وبلاد الشام والمغرب العربي. فظهرت دواوين شعرية بعامية الشام، وكذلك بعامية مصر، ولكن من الطريف أن هؤلاء الشعراء وجدوا أنفسهم مضطرين لشرح معاني بعض الكلمات العامية ببيان المقابل الفصيح لها، وهذا من فضائح هذه الدعوة وغباء أصحابها، ولا سيما أن عامية كل بلد ولهجته تختلف عن أي بلد آخر حتى ضمن المنطقة الواحدة أحياناً

- من دعا إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، فالمستشرق "فنسك" الذى نشر رسائل عديدة مكتوبة بحروف أدبية في اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة "أجرومية مصرى" كتبها على هذا النحو: بل لسان المصرى ومعها أمسلة، يقصد: باللسان المصرى ومعها أمثلة، وهذه الدعوة إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية قصد التيسير تتجاهل أن الإملاء بالعربية أيسر، وأكثر انضباطا من الإملاء والكتابة فى اللغتين الفرنسية والانجليزية اللتين تكثر فيهما الحروف التى تكتب ولا تنطق ، والكلمات التي لها نطق يختلف عن الهجاء.]

- حاول المستشرقون ضرب اللغة العربية به هو التشكيك فى أصالة النحو العربي، فرد بعض المستشرقين النحو العربي إلى أصول يونانية أو سريانية أو هندية أو لاتينية ، فقد قال بالتأثير اليونانى على النحو العربى كل من المستشرق الفرنسى أرنيست رينان والمستشرق الألمانى هوفمان وأميركس والمستشرق الهولندى فيرستيج ، ومن هؤلاء من قال بتأثير يوناني مباشر، ومنهم من قال بتأثير يوناني عن طريق السريانية، وقد ادعى ف – بريتريوس وجود تأثير يوناني لاتيني مشترك على النحو العربي

وقد اعتمد هذا الفريق المنادى بالتأثير الأجنبى على النحو العربي على فرضيات لا أساس لها من الصحة "منها محاولة خلق علاقات تاريخية بين النحاة العرب والنحاة السريان ، مثل علاقة مفترضة لأبى الأسود الدؤلى ويعقوب الرضاوى، وافتراض علاقة بين حنين بن إسحاق والخليل بن أحمد الفراهيدى ، كما افترض دورا للفرس فى نقل المعرفة اليونانية إلى العرب ، مثل معرفة عبدالله بن المقفع باليونانية وتأثيره فى الخليل بن أحمد، ومن هذه الفرضيات أيضا القول بأن مصطلحات الإعراب والصرف والقياس والحركة مصطلحات يونانية ، وإن تقسيم الكلام عند سيبويه تقسيم يوناني.

وفى كل هذا يتجاهل المستشرقون ارتباط ظهور النحو بالقرآن كأحد العلوم التى نشأت من القرآن الكريم لضرورة اسلامية خالصة ، ولأسباب وظروف داخلية كما يتجاهل المستشرقون الآراء الواردة فى المصادر العربية فى تاريخ النحو والتي تقر بنشأته الداخلية

- كما سعى المستشرقون إلى إفساد اللغة العربية وذلك بإدخال مصطلحات غير غربية إلى صميم النص العربى وما نجد من خطأ فى تفسير بعض المصطلحات العربية : مثل محاولة تفسير كلمة (الطلقاء) بقولهم أنهم الذين أدخلوا في الاسلام كرها، وتفسير كلمة (ع م د) بأنه غسيل الولد بماء العمودية فى حين أن كلمة العمودية ليست عربية وإنما هي كلمة قبطية تنطق "معمو ذيت" بالذال المعجمية.

2- الاستشراق والأدب العربي

قد اِنصبت عنايتُه على التراث الشَّرقي كُلِّه– قديمه وحديثه بوجه عام، وعَكف بكُلّ ما أُوتي من وسائل مادية ومعنوية على دراسة نُظم الإسلام بوجـه خاص، إذْ هُو المِفتاح الأساس لفهم عقلية الشرق وأحوالهم؛ وأيقن أنَّ حقيقة الشَّرق هي دراسة اللغة العربية للتعمق والولوج في حضارة العرب ،كما قام بترجمة عدد هائل من الكُتب العربـية إلى اللغات المختلفة، وعني بتحقيقها وكشف عن مخطوطاتـها ونظْم فهارسها، وهذا التحقيق والمعالجة في النُّصوص قام بها أسلافُنا الأقدمون في رواية كُتب الحديث واللغـة والشَّعر والأدب والتاريخ في دقة وأمانة وجهد وطلب، وتَبنى المستشرقون إحياء هذه الفنون والعلوم، ونبغ منهم علماء قاموا بنَّشر نفائس جليلـة من التراث العربي" ولولا عناية المستعمرين بإحـياء آثارنا، لما اِنتهت إلينا تلك الدُرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومُعـجم البلدان، ومُعجم الأدباء، ومُعجم ما أُستعجم، وفتوح البلدان، وفِهرست اِبن النديم، ومفاتيـح العلوم، وطبقات الأطباء، وإخبار الحكماء، والمقدسي الاصطخرى، وابن حوقل، والهمـدانى ، وشيخ الربوة، وابن جبير، وابن بطوطـة إلى عشرات من الكتب الجغرافية، والرحـلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، ووقفنا على درجة حضارتنا، ولولا إحياؤهم تاريخ اِبن جبير واِبن

الأثير وأبي الفداء واليعقوبى والدينوري والمسعودي وأبى شامة ، وحمزة الأصفهاني وأمثالهم لجهلنا تاريخنا الصحيح في عماية من أمرنا.

ومن مزاعم الاستشراق أن المعلقات السبع ماهى إلا خرافة وليس لها وجود تحقيقى، والتسمية "معلقات" تسمية متأخرة ويثير الشك فى القصائد ذاتها وفى أسمائها وشعرائها ويدعى أنه لايوجد بيت شعرى واحد موثوق فى صحته قبل عام 500م

وقد سار على هذا النهج عدد من المستشرقين، مثل المستشرق (نولدكه) فى بحثه "ملاحظات على صحة القصائد العربية القديمة" حيث يربط فيه بين الخبر الأدبى والخبر التاريخى ويزعم أن الموقف من الشعر العربى القديم ماهو إلا جزء من التاريخ العربى القديم ، فكما أنه من الصعب توثيق أخبار العرب قبل الاسلام وإعطاء تصور تاريخى عن حياتهم فى الجاهلية فالأمر كذلك ينطبق على الشعر الجاهلى من حيث تأليفه ونسبته إلى ناظميه كما يشكك في صحة الأنساب الواردة في المصادر العربية القديمة.

وأما المستشرق صمويل مرجليوث حسب قول محمد هدارة: " على كثير ما كتب المستشرقون في قضايا اللغة العربية والأدب العربى لانجد مقالة تمثل سوء المنهج العلمي خضوعا للتعصب المقيت ضد العروبة والاسلام أشد وقعا وأبعد أثرا من مقالة صمويل مرجليوث المستشرق الانجليزى التى نشرها بعنوان "أصول الشعر العربي [1]"ويهدف من مقالته هذه إلى التشكيك فى الإسلام بإثارة الشكوك حول الشعر العربى" وهو ما طبقه طه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي، الذي يقول فيه :" **:فأول شيء أفاجئك به فى هذا الحديث هو أننى شككت فى قيمة الأدب الجاهلى ، وألححت فى الشك،أو قل ألح على الشك ،فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بى هذا كله إلى شئ إن لم يكن يقينيا فهو قريب من اليقين ، وذلك أن الكثرة المطلقة مما يقال أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هى منحولة بعد ظهور الاسلام**"

ومن الأدباء العرب الذين تأثروا بالمنهج الاستشراقى المؤرخ والروائى جرجى زيدان، هذا الكاتب الذي يعمد حينما يختار موضوع رواياته إلى اختيار المواقف الحساسة التى تمثل صراعا بين مذهبيين وسياسيين أو بين كتلتين تتصارعان على النفوذ والسيطرة ، فهو فى الوقت الذى يحدثنا عن فتاة غسان لانجده يعترض لفترة ظهور الاسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا لفترة انتشار الاسلام وفتوحاته فى عهد خلفائه ، إنما يعبر لهذه الفترة ليقدم لنا مجموعة من الروايات التى تمثل الصراع السياسي فى عهد بنى أمية، وآخر فى عهد عثمان وهى عذراء قريش ، فغادة كربلاء والحجاج بن يوسف، وهو لا يختار من العصر العباسى الأول إلا شخصية أبى مسلم الخراسانى التى تمثل الصراع بين العناصر العربية والفارسية، وشخصية العباسة التي تمثل الصراع بين الرشيد والبرامكة، وشخصيتى الأمين والمأمون وهما يمثلان عودة الصراع بين العرب والفرس من جديد.

"لقد كان جرجى زيدان بمعرفته للغات واطلاعه على المناهج الجديدة أشبه شئ بهمزة وصل بين الحركة العلمية العربية وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط فى أوربا وأمريكا ، واتصلت العلاقات بينه وبين أعلام المستشرقين، مثل (ثيودر نولد) و(يوليوس فلهاوزن) و(مارجوليوث) و(ادوارد سخاو). وكان معظم هؤلاء يفدون على القاهرة للدراسة أو البحث عن المخطوطات أو لنشر بعض ما أعدوه من مخطوطات عربية، فاتصلوا جرجى زيدان وأخذا عنه وأخذ عنهم، ووجدوه يبحث عن أسلوبهم مع تفوقه عليهم في العلم بالعربية فعظمت قيمته في أعينهم وأقبلوا يقرؤون فى الهلال وماينشر من كتب، وتصدى نفر منهم لترجمة بعض روايات تاريخ الاسلام، فكانت هذه الروايات من أول ماترجم من اللغة العربية من عيون الأدب العربي الحديث "

المحاضرة السادسة : الاستشراق وترجمة القرآن الكريم

لابد من الإشارة بان الدراسات التي تتميز بالجد و العمق للإسلام، لم تبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر، حين ذاعت الثقافة الإسلامية في أوربا، وحين بسط الغرب الاستعماري سلطانه على البلاد الإسلامية.

عندئذ نهض كثير من علماء أوروبا لدراسة الإسلام و تراثه محاولين التعرف على سر حيوته و بقائه...

وكان اهتمامهم أولا بكتب المغازي و السير و التاريخ، ثم أخذوا في دراسة القرآن وعلومه، والفقه و أصوله ، وعلوم أصول الدين، و الفرق الإسلامية، و ما إلى ذلك من مظاهر الفكر الإسلامي

ومما لاشك فيه أن ترجمة معاني القرآن الكريم تعد من أصعب المحاولات التي تمت في مجال الترجمة على الإطلاق؛ وذلك لأن نقل معنى الآيات القدسية المحكمة إلى لغة أخرى غير العربية ليس بالأمر السهل إلى جانب عجز لغة الترجمة عن نقل التركيب البلاغي للآيات وما تحمله من معانٍ ومدلولات لا تظهرها إلا لغةُ القرآن التي نزل بها.

ومحاولات ترجمة معاني القرآن الكريم بدأت في وقت مبكر مع الفتوحات الإسلامية للأندلس، ودخول الإسلام في البلدان الناطقة بغير العربية، فقد ظهرت جاليات إسلامية تعيش في دول أوربا وآسيا وأمريكا تحتاج إلى معرفة القرآن وفهم معانيه، والوقوف على أحكامه بغير أن تتعلم العربية لغة القرآن، ولتحقيق هذا الغرض بدأ بعض الأوروبيين آنذاك في تعلم اللغة العربية وتمت على أيديهم المحاولاتُ الأولى للترجمة، وتبعها محاولات المستشرقين الذين تركوا بلادهم واستقروا في البلاد الإسلامية وفق أهداف استعمارية، وقد تعرض القرآن الكريم إلى مجموعة من الترجمات الخاطئة على يد هؤلاء المستشرقين من أصحاب النيات السيئة التي تسعى إلى تشويه مقاصد القرآن وإفساد معانيه، والعمل على تفريغه من قدسيته وجمال تعابيره ومحكم آياته.

تعد الترجمات التي قام بها المستشرقون من أسوأ المحاولات التي تمت في مجال ترجمة معاني القرآن الكريم على الإطلاق، فقد كان هدفها الوحيد إيجاد حاجز بين القرآن وبين من يريد فهم الإسلام، ومن أجل ذلك شوهوا معاني القرآن أيما تشويه، وجهلوا - أو تجاهلوا - أيسر قواعد اللغة ونظام التراكيب ومعنى المفردات العربية، ولم يحاولوا فهم معاني القرآن على الإطلاق، ولم يعتمد أحد منهم البحث العلمي للوصول إلى الحقيقة، وهناك مغالطات كثيرة في ترجماتهم، والفكرة السائدة فيها أن القرآن ليس إلا مجموعة أقاويل متفرقة وقصص سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم من علماء اليهود والنصارى.

وقد جاءت ترجماتهم على قسمين :ترجمات للقرآن كله، وترجمات لبعض سور القرآن، ومنها ترجمات مرتبة حسب الترتيب المصحفي المأثور مثل ترجمة" جورج سيل "وترجمة" آربري"، ومنها ما هو مرتب على ترتيب النزول مثل ترجمة" راد ويل"، و"بالمر"، و"بيل "وأمثالهم الذين غيروا الترتيب المصحفي المأثور افتراضا منهم أن الترتيب النزولي يبين التطورات الفكرية للرسول صلى الله عليه وسلم.

وتعد ترجمة" ألكسندر روز "إلى الإنجليزية والتي أسماها "قرآن محمد" وبدأت تصدر مجزأة عام 1664م، وطبعت بكاملها عام 1718م، رائدة لجميع الترجمات، ولها قيمة علمية كبيرة عند المستشرقين، برغم ما تحمله من افتراءات كثيرة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى القرآن.. وبعدها توالت ترجمات معاني القرآن إلى عدة لغات أوربية وخاصة إلى الفرنسية، ولا توجد اليوم لغة أوربية أو شرقية إلا وفيها ترجمة أو عدة ترجمات لمعاني القرآن.

•مغالطات وأخطاء:

ويمكن إجمال المغالطات والأخطاء التي احتوتها ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم فيما يلي:

.1زعمهم أن الإسلام كان للعرب وحدهم.

.2 محاولة التقليل من أهمية الإسلام ودعوة القرآن.

.3 زعمهم أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت حركة إصلاحية محلية مؤقتة ومقصورة على أهل مكة.

.4 سعيهم المتعمد إلى تشويه مقاصد القرآن وتفريغه من قدسيته.

.5 تعمدهم قلب الترتيب المصحفي المأثور ووضع ترتيب حسب أهوائهم وزعمهم الباطل، كما حدث في ترجمة" داؤد " اليهودي العراقي التي ظهرت عام 1956م، واخترع فيها ترتيبا حسب النغمة الشعرية للسور والآيات، وجرد الترجمة من أرقام الآيات فضلا عن النص العربي للمصحف.

.6 تعمدهم التقديم والتأخير والحذف لكلمات القرآن، واستخدام لغة الحوار الدارج في ترجمة الآيات المقدسة.

وأمام هذا التشويه المتعمد من المستشرقين للقرآن الكريم كان لابد أن تظهر ترجمات صادقة لمعاني القرآن يقوم بها مسلمون من أهل السنة، فظهرت ترجمة الدكتور "عبد الحكيم خان" بالهند عام 1905م، وترجمة" الميرزا أبو الفضل آبادي "عام 1911م، وترجمة جمعية الدعوة الإسلامية بالهند عام 1915م، وترجمة "السيد حسين بلجرامي" عام 1926م.

وتعد ترجمة" محمد مارمادیوك بيكتهال "الإنجليزي الأصل التي ظهرت عام 1930م بلندن، وقام الأزهر بمراجعتها قبل طباعتها وسماها صاحبها" معاني القرآن المجيد "من أفضل الترجمات التي قام بها مسلم من أهل السنة، إذ أجمع العلماء المعنيّون بترجمات القرآن وتفاسيره على أن معاني القرآن لم تترجم إلى الإنجليزية أحسن من ترجمة بيكتهال من ناحية جمال الأسلوب وفصاحة اللغة والمحافظة على العقائد.

وبعدها جاءت ترجمة" محمد أسد "المسلم النمساوي التي اعتمد فيها على ما كتبه أئمة التفاسير مثل البيضاوي والبغوي والزمخشري والرازي، وكتب الصحاح الستة علاوة على القواميس والمعاجم المعترف بها.

•ترجمة إلى اللغة السويدية:

وتعد ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة السويدية التي قام بها" محمد كنوت بيرستروم"، الدبلوماسي السويدي الذي اعتنق الإسلام عام 1985م، وصدرت عن دار بروبريوس في استكهولم في حوالي ألف صفحة من الترجمات الحديثة لمعاني القرآن، فقد ظهرت عام 1999م

المحاضرة السابعة: الاستشراق وقضية جمع القرآن الكريم.

يُعَدّ ثيودور نولدكه أول باحث يقدّم دراسة غربيّة عن القرآن بكتابه الشهير: (تاريخ القرآن)، والذي أصبح حجر أساس لكلّ الباحثين مِنْ بعده، وقد كان يتبنّى السردية الإسلامية عن جمع المصحف، ثم أخذت البوصلة تتغير بعد نشر إجناس جولدتسيهر كتابه: (دراسات محمّدِيّة)؛ حيث ضرب بكلّ السردية عرض الحائط واقترح أن الأحاديث والمرويات لا يمكن التعويل عليها ولا التثبّت منها، وأنها تشكّلَتْ في عصر الدولة الأُموية والعباسية، ويمكننا القول أن جولدتسيهر أصبح الأب الروحي للاتجاه التنقيحي الذي سيظهر فيما بعد، تتحوّل البوصلة بشكلٍ أكثر تطرفًا ليخرج علينا بول كازانوفا ويقدّم أطروحة مفادها أن القرآن تم جمعه في عهد عبد الملك بن مروان في القرن الثاني الهجري، وبعد أن نشر جوزيف شاخت كتابه: (أصول الفقه المحمّدي) محاولًا تثبيت فكرة جولدتسيهر عن التشكيك في كون الأحاديث منسوبة للرسول ويمكن الاعتماد عليها في البحث التأريخي للإسلام؛ ليتولد تيار يُعرف بـ(الاتجاه التنقيحي) الذي يحاول التقليل من موثوقية المصادر الإسلامية ويعتَبِر الاعتماد عليها غير علمي، وأمثال هذا الاتجاه: جون وانسبرو، بورتون، بالإضافة إلى باتريشا كرون، ومايكل كوك. في مقابل هذا الاتجاه برز اتجاه آخر يحاول التوفيق بين التشكيك ونقد المصادر، ويعمل على المقاربة بين رؤية المسلمين للقرآن ورؤية الباحثين التنقيحيّين؛ بُغية الوصول لنتائج أكثر دقّة وعِلْمِيّة -من وجه نظرهم- وأمثال هذا الاتجاه: أنجيليكا نويفرت وفريقها؛ جينبول، غريغور شولر، مونتجمري وات، بالإضافة إلى صاحب هذه الدراسة هارالد موتسكي.

هارالد موتسكي؛ عرض وبيان:لذا ينقسم بحث موتسكي إلى قسمين رئيسين:

أولًا: العرض والنقد لأهم البحوث الاستشراقية لتاريخ القرآن.

ثانيًا: تطبيق نموذج موتسكي (التحليل الحديث لمرويات جمع القرآن).

أولًا: العرض والنقد لأهم البحوث الاستشراقية لتاريخ القرآن:

ركّز موتسكي على أربعة باحثين لاستعراض أهم النتائج التي توصّلوا إليها وبيان المنهجيّات المستخدَمة من قِبَلِ كلّ واحد منهم، ويجب أن نؤكّد على أن شِدّة التعبيرات المستخدَمة في وصف تلك الدراسات إنما هي من استعمال موتسكي؛ ونحن هنا ننقل فقط رؤيته لتلك البحوث، وهؤلاء الباحثون هم: (شيفالي)، و(منجانا)، و(وانسبرو)، و(بورتون).

1- فريدريش شيفالي (لم يجمع أبو بكر المصحف):

قام شيفالي -متأثّرًا بما طرحه جولدتسيهر عن الأحاديث والتشكيك في موثوقيتها- بإعادة تنقيح كتاب نولدكه: (تاريخ القرآن)، ونشر الجزء الأول منه عام 1909م، والثاني 1919م، ليرفض ما قرّره نولدكه من جَمْع أبي بكر للمصحف خلافًا للرواية الإسلامية المعروفة، وعلّل شيفالي رَفْضَه بوجود علاقة زائفة بين موت القُرّاء والخوف على القرآن من الضياع في هذا التوقيت، واستنكاره أن يكون زيد بن ثابت عضوًا في لجنة جمع المصحف في عهد عثمان وهو مُكلَّف بالجمع في عهد أبي بكر، كما أبدى تحفّظَه من دعوى أنّ نُسْخَة مصحف أبي بكر التي ورثها عمر هي نسخة رسمية للخلافة؛ بحُجّة أنّ هذه النسخة ذهبتْ إلى حفصة بنت عمر ولم تذهبْ إلى الخليفة عثمان، وبهذه الأسباب يصلُ شيفالي إلى نتيجة مفادها أن مرويات جَمْع المصحف الأول هي مرويات غير صحيحة تم وضعها لاحقًا لإعطاء مصحف عثمان -المثير للجدل بين المسلمين بحدِّ تعبيره- سُلْطَة رسمية.

نقد موتسكي لطرح شيفالي:

كان موتسكي شديدًا في نقده لشيفالي؛ حيث طرح كلَّ الفرضيات التي ذكرها أرضًا وبيّنَ مَواطِنَ الخَلل والضَّعْف الواقع فيهما شيفالي؛ والحقيقة أنّ شيفالي قَدّم أطروحته على طبق من ذَهَب لكلّ من يريد انتقاد منهجه، وجاء النقد في النقاط الآتية:

1- التناقض الواضح بين قبول شيفالي لجزء من الرواية القائلة بجمع أبي بكر الأول ورفض الجزء الآخر؛ حيث رفض شيفالي كون المصحف الأول رسميًّا لأن حفصة هي من ورثته بدلًا من عثمان، في حين أنّ ذات الرواية تقول أنّ عمر قد ورثه من الخليفة أبي بكر مما يثبت أنه المصحف الرسمي.

2- تناقضه في قبول الروايات التي تذكر جَمْعَ عثمان ورفضه لروايات جمع أبي بكر، وهو مَنْ قرّر أنّ مرويات جمع عثمان بها تناقضات، إلّا أنه قَبِلها واعتمد عليها في تضعيف مرويات جمع أبي بكر بدون الاستناد على دليل علمي واضح.

3- إغفال التقييم التأريخي للمرويات، بيدَ أن شيفالي استخدم مرويات كثيرة حول جمع القرآن إلا أنه لم يقم بعملية تحليل لمصادر النصوص وتطبيق المنهج العلمي في نقدها، وإنما استبعد بعض الروايات وفق ما تراءى له، ولعلّ هذه الطريقة ليستْ من بنات أفكاره بل هي مما استقاه من نظرية جولدتسيهر كما ذكرنا آنفًا.

2- ألفونس منجانا (الحَجَّاج صاحب فكرة المصحف):نشر منجانا مقاله عام 1916م بعنوان: (نقل القرآن)، مُتبنيًا رأي كازانوفا بأن المصحف الرسمي الأول تم جمعه في عهد عبد الملك بن مروان 86هـ باقتراح من وزيره سيّئ السُّمْعَة الحَجّاج بن يوسف الثقفي، وقد بنى هذه النتيجة على أُسس لمنهجه تتلخّص في:

1- اعتبار أوّل مصدر حديثي مكتوب يصل إلينا هو طبقات ابن سعد 229هـ، وهو يبعد 200 عام عن تاريخ وفاة النبيّ وهي مدة زمنية كبيرة، والتشكيك في النقل الشفاهي للمرويات، علاوة على عدم ذِكْر مرويات جمع عثمان في طبقات ابن

سعد بينما ظهرت في كتاب البخاري 256هـ الذي يبعد 27 عامًا عن كتاب ابن سعد؛ مما يرجح عدم وجود هذه الروايات قديمًا وظهورها في وقت لاحق.
2- رفضه للمصادر الإسلامية والتشكيك في موثوقيتها والاعتماد على مصادر مسيحية يمكن الاعتماد عليها كمصدر تاريخي أفضل -بالنسبة له- يمكن الوثوق به، وبناء على ذلك فقد قام بجمع بعض المصادر في القرن الهجري الأول والثاني من المخطوطات المسيحية السريانية مثل المناظرة المسجّلة بين عمرو بن العاص وأسقف أنطاكيا يوحنا الأول 18هـ، وتاريخ يوحنا بن الفنكي المكتوب 70هـ في أوائل خلافة عبد الملك بن مروان وغيرها من المصادر التي لم يجد فيها منجانا أيَّ ذِكْر عن مصحف رسمي للخلافة، مما قدح ذهنه ليقول بعدم وجود مصحف رسمي قبل خلافة عبد الملك، وأنّ مصحف عثمان ما هو إلّا مصحف شخصي كما كان لبعضٍ من الصحابة مصاحفهم الخاصّة، غير أنه يوجد ضمن مصادر بحثه (رسالة الدفاع) التي كتبها عبد المسيح بن إسحاق الكندي (216هـ) للدفاع عن العقائد المسيحية، وهي تُعَدُّ واحدة من أقدم الأدلة غير الإسلامية على جمع القرآن، وقد ذكر فيها الكندي عدّة نقاط عن تاريخ المصحف ذكر فيها:
- جمع أبي بكر للمصحف مع اختلاف سبب الجمع عن موت القُرّاء.
- جمع عثمان بطريقة مماثلة للروايات الإسلامية.
- جمع الحَجّاج للمصحف مع ذكره للتخلّص من المصاحف الأخرى وإصدار (6) ستة مصاحف توزّع على الأمصار كما فعل عثمان في الرواية الإسلامية.
وهنا يجب التنويه على أنّ الكندي أوضح أن مرجعيته في هذا هي الروايات الإسلامية. وحتى مع استشهاد منجانا بتلك الرسالة، بيدَ أنه يصل إلى نتيجة عدم اعتبار مصحف عثمان سوى مصحف شخصي كالمصاحف المفردة التي كانت توجد مع الصحابة الذين يكتبون القرآن، وأنّ جمع الحَجّاج للمصحف هو المصحف الرسمي الذي تم جمعه وتنقيحه اعتمادًا على المصاحف المكتوبة والمحفوظة شفهيًّا.
نقد موتسكي لطرح منجانا: كان بحث منجانا لُقْمَة سائغة استطاع موتسكي مضغها وهضمها، لا سيّما وأن منجانا ارتكز على مسلَّمات تُعَدُّ الأساس لمنهجه ويسهل التشكيك فيها، وهي:
- عدم الاعتماد على موثوقية الأحاديث؛ لأنها منقولة مشافهةً.
- المرويات الموجودة في المصادر الأقدم أكثر موثوقية وتهدم المصادر الأحدث منها، ومثال ذلك عدم اعتباره روايات البخاري لجمع أبي بكر وعثمان روايات صحيحة لأنها لم تُذكر في طبقات ابن سعد الأقدم من البخاري.
- اعتبار المصادر المسيحية أكثر موثوقية من المصادر الإسلامية؛ لأنها مكتوبة وسابقة عليها.
وقد شكّك موتسكي في هذه الأُسُس وبيّن أنها على درجة كبيرة من التهافت ولا ترقى لأنْ يُبْنَى عليها أيٌّ من الاستنتاجات التي توصَّل لها منجانا، حيث اعتبر أنه وقع في عِدّة أخطاء، وهي:
1- استدلاله بمغالطة عدم العلم على العلم بالعدم أكثر من مرّة في طرحه؛ فقد استنتج أنّ المصحف الرسمي لم يكن بين أيدي المسلمين لأنّ المصادر المسيحية في القرن الأول والثاني لم تورد ذكر ذلك، وبالقطع يُعَدُّ ذلك خطأ في الاستدلال.
2- عدم الاعتراف بروايات البخاري بحُجّة عدم وجودها في طبقات ابن سعد، بيدَ أن ذات الروايات موجودة بشكلٍ مشابه لتلك المذكورة في رسالة الكندي وهي موجودة قبل (40) أربعين عامًا من روايات البخاري، مما يثبت صحة روايات البخاري، وأنّ لها وجودًا سابقًا عند المسلمين قبل أن ينقلها البخاري في كتابه.
3- غياب كامل لتقييم رواية اللاهوتي المسيحي (الكندي) في ضوء الروايات الإسلامية، واعتبر موتسكي أنه بعقد المقارنة ستظهر رواية الكندي كنسخة مشوّهة من المرويات الإسلامية.
وبذلك تُدحض النتائج التي توصّل إليها منجانا كنتيجة طبيعية لبطلان الأُسُس والمرتكزات التي يقوم عليها بحثه، واعتبار أنّ تأريخه للمرويات الإسلامية يفتقر إلى كثير من التحرّي الدقيق.وهنا يجب التنويه على أنّ نتائج منجانا لمقاربته في تأريخ القرآن ظهرت في كتاب: (الهاجرية) 1977م على يد باتريشا كرون ومايكل كوك رغم عدم إشارتهما لمقالة منجانا
ومع استكمال نقد موتسكي إلى الأبحاث الآتية يلوح في الأفق من بعيد نظريتا جولدتسيهر وشاخت وتظهر واضحة جليّة في مناهج كِلَا الباحثَين التاليين، فقد جعلَا أساس منهجهما قائمًا على تلك النظريات، ولم يقدِّما تحليلًا نقديًّا حقيقيًّا لمرويات جمع القرآن.

المحاضرة الثامنة: الاستشراق والقراءات

تعتبر القراءات القرآنية من أهم المواضيع التي اعتنى بها العلماء المسلمون منذ عصر النبوة ، كما أنها من أهم الحقول التي ركز عليها الفعل الاستشراقي بغية الإساءة للقرآن الكريم ودس الشبهات حوله وإثارة الشكوك.

ومما أثاره المستشرقون حول القراءات القرآنية ما يأتي:

1- طعنوا في صحة حديث " كذلك أنزلت " وفي دلالته ، وقطعوا الصلة بينه وبين القراءات ، فجولد زيهر وسم حديث الأحرف السبعة بالشذوذ وعدم الإسناد " إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ماتيسّر منه "

حيث يقول فيه جولد زيهر: " روي في مجاميع السنة المعتد بها على الرغم من أن ثقة مثل أبي عبيد القاسم بن سلام توفي 224ه 837م ومنه أنه شاذ غير مسند"

والملاحظ أن جولد زيهر يتناقض في قوله فهو يقر بثقة أبي عبيد القاسم ثم يقول بشذوذ الحديث لأنه غير مسند ، وقد اعتمد في النظر في هذا الحديث على كتاب ألف باء للبلوي مع أن الحديث موجود في كتب الأصول التي لاشك أنه قد اطلع عليها .

كما نجده يقطع صلة أحاديث الأحرف السبعة باختلاف القراءات ، حيث يقول نافيا الصلة بينهما: " وهو في معناه الصحيح ..لا علاقة له في الأصل بتات باختلاف القراءات " ثم يدعي أن الحديث لجل " الدلالة على التصويب المقيّد ببعض النظم والشروط للقراءات السائدة، وذلك لما روي عن الرسول أنه أصدر هذا المبدأ الأساسي ن حينما عرضت عليه اختلافات في قراءة نص القرآن "

والحق أن هذا الحديث " هو الأصل والعمدة في بيان إنزال القرآن على هذه القراءات المختلفة ، وهذا إجماع من علماء اسلام لا اختلاف بينهم في ذلك ، فكيف لا يكون له علاقة باختلاف القراءات "

2- ادعى المستشرقون أن سبب اختلاف القراءات يعود إلى خلو رسم المصحف من الشكل والنقاط والحركات ، حيث يقول جولد زيهر :" وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة ، تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته وعدد تلك النقاط ، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية ، يدعو اختلاف الحركات الذي لايوجد في الكتابة العربية الأصلية مايحدده إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة وبهذا اختلاف دلالتها ، ولهذا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات المحصول الموحد للقالب من الحروف الصامتة ن كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطا أصلا أو لم تتحر الدقة في نقطه وتحريكه "

كما سار على خطى زيهر المستشرق آرثر جيفري الذي يقول في مقدمة تحقيقه لكتاب المصاحف لابن أبي داوود السجستاني: " وكانت هذه المصاحف(يقصد مصاحف عثمان) كلها خالية من النقط والشكل فكان على لاقارئ نفسه ان ينقط ويشكل هذا النص على مقتضى معاني الآيات ومثال ذلك (يعلمه) كان يقرؤها (يعلمه) والآخر (نعلمه) أو (تعلمه) أو (بعلمه) على حسب تأويله للآية"

وهذا رأي فيه مغالطة لأن الرواية والتلقي والسماع هو الأصل الذي تثبت به القراءة ويثبت به رسمها ، وليس لأحد الاجتهاد في ذلك .ولم يكن للرسم العثماني أثر في تعدد القراءات وإنما كان وسيلة لحفظ القراءات الثابتة النقل ، إذ أن تلك الوجوه المختلفة لم يكن لها سوى سبب واحد هو التلقي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومما يؤكد أيضا ماذهب إليه المستشرقون أنه لو كان خلو المصاحف من الشكل والنقط سببا في تنوع القراءات واختلافها لكانت كل قراءة يحتملها رسم المصحف صحيحة معتبرة قرآنا ولوجدنا أنفسنا أمام قراءت لاتعد ولاتحصى والواقع ليس كذلك ، كما أن وجود ألفاظ تقرأ بخلاف الرسم مثل الصلاة التي رمست في المصحف الصلواة والزكاة التي رسمت الزكواة وأن قراءة ألم في بداية البقرة غير قراءتها في الانشراح يدل على أن الأمر المعتمد هو النقل ، وهو ما يتوافق مع أمر رفض بعض القراءات التي لم يثبت نقلها وإن احتملها الرسم كقراءة حمادة الراوي (أباه) عوضا من (إياه) في قوله تعلى " وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إيّاه"

3- الطعن في رجالات القراءة وفي أصولها الضابطة ولم يميزوا بين أنواعها على أساس صحيح ولا ضابط منهجي ، فزعموا أن القراءات تتبع القارئ حسب رؤيته وتحليله لمعنى الآيات ، فله أن يتدخل فيها بالتغيير اللفظي يسيرا أو كثيرا وهو ما يطلقون عليه حرية القراءة بالمعنى.
وبذلك يدعي جولد زيهر أن: " كثرة قراءة الصحابة واختياراتهم الشخصية جعلت القرآن يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات " حيث المعول على المعنى لا على اللفظ ، ويدعي أنه بسبب ذلك تمت زيادات مفسّرة دفعا للاضطراب كما اتهم بذلك الصاحبيين الجليلين عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب حيث يقول : " وليس بواضح حقا ما قصد من هذه الزيادات ، هل قصد أصحابها من ذلك تصحيح حقيقي للنص أو إضافة تعليقات موضحة فقط لاتغيير النصص في شيء "

ولا يمكن لأي عارف أن يصدق هذا الافتراء على صحابيين جليلين حث الرسول صلى الله عليه وسلم بتلقي القرن عنهما " خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مولي أبي حذيفة وابي بن كعب ومعاذ بن جبل " كما أن في قوله

اضطراب فهو يدعي أن هناك زيادات ثم يتساءل عن سببها فكيف علم أنها زيادات من دون أن يعلم سبب وضعها في النص ؟

وعليه الواضح أن هذه الطعون وغيرها لا تستند إلى رأي علم واضح ولا يمكن اعتمادها في الطعن أو القول في القراءات الثابتة

المحاضرة التاسعة : علم التفسير في كتابات المستشرقين

أثار المستشرقون حول التفسير عدة شبهات ؛ وذلك للتقليل من شأن القرآن الكريم ، والتشكيك في موثوقيته ، وقطع الصلة بينه وبين المسلمين ، وإحداث الاضطرابات في عقول القراء والمثقفين .

وهذه بعض شبهاتهم :

أ :شبهة امتناع بعض الصحابة والتابعين عن تفسير القرآن الكريم

ذكر المستشرق (جولد زيهر) في كتابه : المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ،دعوى امتناع الصحابة والتابعين والعلماء عن تفسير القرآن الكريم فقال :

" إن هذا النوع من النظر والتأليف لم يصادف تشجيعاً في الأوساط الدينية في الاسلام قديماً فحسب ؛ بل إن العلماء والفقهاء حذروا من ذلك غاية التحذير ، ولدينا شواهد من القرن الثاني الهجري تدل على أن الاشتغال بالتفسير كان ينظر إليه بعين الريبة ، وأن الرأي إزاء هذا العمل كان مصحوباً بالمقاومة له والفزع منه .

ثم ذكر بعض الشواهد على ما يزعم ؛ عن بعض الصحابة والتابعين والعلماء ، واستدل كذلك بقصة عن سيدنا عمر وضربه لرجل يسمى (ابن صَبِيغ) لأنه يسأل عن المعاني الغامضة في القرآن الكريم .

كما ذكر رواية محكية عن الامام أحمد : ثلاثة أشياء لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي.

الرد:امتنع من الصحابة والتابعين عن التفسير فقد كان ذلك تورعاً كما يقول ابن عطية :

" كَانَ جِلَّةٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعَامِرٍ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِمَا يُعَظِّمُونَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ وَيَتَوَقَّفُونَ عَنْهُ تَوَرُّعًا وَاحْتِيَاطًا لِأَنْفُسِهِمْ مَعَ إِدْرَاكِهِمْ وَتَقَدُّمِهِمْ.

. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ: وَقَدْ كَانَ الْأَئِمَّةُ مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِي يَتَوَرَّعُونَ عَنْ تَفْسِيرِ الْمُشْكِلِ مِنَ الْقُرْآنِ، فَبَعْضٌ يُقَدِّرُ أَنَّ الَّذِي يُفَسِّرُهُ لَا يُوَافِقُ مُرَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُحْجِمُ عَنِ الْقَوْلِ. وَبَعْضٌ يُشْفِقُ مِنْ أَنْ يُجْعَلَ فِي التَّفْسِيرِ إِمَامًا يُبْنَى عَلَى مَذْهَبِهِ وَيُقْتَفَى طَرِيقُهُ."

بل ورد من طريق صحيح أن سيدنا عمرτ سُئِل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾فقال:

يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس.

وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس:

ما تقولون في تفسير هذه الآية:﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؟ فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار،ثم قرأ:﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾

ب: شبهة التضاد في روايات التفسير والرد عليها

ومن مزاعم (جولد زيهر) حول التفسير بالمأثور: أن التضاد والاختلاف في روايات التفسير بالمأثور يقلل من قيمتها فيقول فى كتابه "المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن" - ما نصه: (وإنما لمما يلفت النظر فى هذا المحيط، هذه الظاهرة الغريبة، وهى أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو، وهى فى نفسها تظهر فى تضاد شديد بينها وبين بعضها، مما لا يقبل التوسط أو التوفيق"

ثم يقول بعد كلام ساقه فى هذا الموضوع: "ويمكن أن يُرى من ذلك إلى أى حد يكون مقدار صحة الرأى المستند إلى ابن عباس، وإلى أى حد يمكن الاعتراف به. وما نعتبره بالنسبة له وللآراء المأثورة عنه، يمكن أن يُعتبر إلى أقصى حد بالنسبة للتفسير المأثور، فالأقوال المتناقضة يمكن أن ترجع دائماً إلى قائل واحد، معتمدة فى الوقت نفسه على أسانيد مرضية موثوق بها ..."

ثم يقول بعد كلام ساقه عن الإسناد وما قع فيه من اللعب والخداع: "ومن الملاحظات التى أبديناها، يمكن أن نخلص بهذه النتيجة: وهى أنه لا يوجد بالنسبة لتفسير مأثور للقرآن ما نستطيع أن نسميه وحده تامة أو كياناً قائماً، فإنه قد تُروى عن الصحابة فى تفسير الموضوع الواحد آراء متخالفة وفى أغلب الأحيان يناقض بعضها بعضاً من جهة، ومن جهة أخرى فقد تُنسب للصحابى الواحد فى معنى الكلمة الواحدة أو الجملة كلها آراء مختلفة، وبناء على ذلك، يُعتبر التفسير الذي يخالف بعضه بعضاً، والمناقض بعضه بعضاً، مساوياً للتفسير بالعلم".

الرد:

" إن الصحابة ψكانوا يفسّرون القرآن بمقتضى لغتهم العربية، وما يعلمونه من الأسباب التى نزل عليها القرآن، وبما أحاط بنزوله من ظروف وملابسات، وكانوا يرجعون فى فهم ما أشكل عليهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن المفسّرين من التابعين كانوا يجلسون لبعض الصحابة يتلقون عنهم ويروون لهم، فأخذوا عنهم كثيراً من التفسير، وقالوا فيه أيضاً برأيهم واجتهادهم وكانت لغتهم العربية لم تصل إلى درجة الضعف التى وصلت إليها فيما بعد.

ونزيد عليه أن ما دُوّن من العلوم الأدبية، والعلوم العقلية، والعلوم الكونية، ومذاهب الخلاف الفقهية والكلامية، لم يكن قد ظهر شئ منها فى عصر الصحابة والتابعين، وإن كان قد وُجِدت النواة التى نمت فيما بعد وتفرَّعت عنها كل هذه الفروع المختلفة. كان هذا هو الشأن على عهد الصحابة والتابعين، فكان طبيعياً أن تضيق دائرة الخلاف فى التفسير فى هاتين المرحلتين من مراحله، ولا تتسع هذا الاتساع العظيم الذى وصلت إليه فيما بعد.

كان الخلاف بين الصحابة فى التفسير قليلاً جداً، وكذا بين التابعين وإن كان أكثر منه بين الصحابة، وكان اختلافهم فى الأحكام أكثر من اختلافهم فى التفسير.

ويمكن القول بأن الاختلاف الذي وقع بين السلف في تفسير القرآن الكريم ؛ يرجع إلى عدة أمور :

* أن يُعبِّر كل واحد من المفسّرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر منها، بل الأمر كما قال الله تعالى:

فمثلاً قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**﴾ [طه: 124] .. وإذا قيل: ما ذكره؟ يقال: ذِكْره قرآنه، أو كتابه، أو كلامه، أو هُدَاه، ونحو ذلك. وهذا على القول المشهور من أن المصدر مضاف للفاعل، كما يدل عليه سياق الآية وسباقها.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما فى الاسم من الصفة المختصة به فلا بد فى ذلك من قدر زائد على تعيين المسمى، مثل أن يسأل عن القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وقد علم أنه الله ولكن يريد أن يعرف معنى كونه قدوساً. وسلاماً، ومؤمناً، ومهيمناً، ونحو ذلك.

والسَلَف كثيراً ما يُعبِّرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر، كمن يقول: القدوس: هو الله، أو الرحمن، أو الغفور، ومراده أن المسمى واحد، لا أن هذه الصفة هى هذه. ومعلوم أن هذا اختلاف لا يمكن أن يقال إنه اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس.

ومثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو اتباع القرآن، لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث علىّ τ عند الترمذى:

(...وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ...) ....

ومنهم مَن قال: هو اتباع السُّنَّة والجماعة، ومنه مَن قال: هو طريق العبودية، ومنه مَن قال: هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك فهذه كلها أقوال لا منافاة بينها ولا تباين، بل كلها متفقة فى الحقيقة، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، وهو طاعة الله ورسوله، وهو طريق العبودية لله، فالذات واحدة، وكلٌ أشار إليها ووصفها بصفة من صفاتها.

* أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه.

* أن يُعبِّروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف قليل فى اللغة، ونادر أو معدوم فى القرآن، وقَلَّ أن يُعبَّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدى جميع معناه، وإنما يُعبَّر عنه بلفظ فيه تقريب لمعناه

* أن يكون فى الآية الواحدة قراءتان أو قراءات، فيفسِّر كل منهم على حسب قراءة مخصوصة فيظن ذلك اختلافاً، وليس باختلاف وأمثلة هذا النوع كثيرة. وقد خُرِّج على هذا الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى.﴿أَوْلاَمَسْتُمُ﴾ [النساء: 43، المائدة: 6] .. هل هو الجِماع، أو الجس باليد؟ فالأول تفسير لقراءة: "لامستم"، والثانى لقراءة: "لمستم" ولا اختلاف.

هذه هى الأوجه بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السَلَف التى تبدو متعارضة.

ج- الطعن في رجال التفسير بالمأثور

اتهم جولدزيهر سيدنا ابن عباس وغيره من الصحابة ψ والتابعين ، بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب ، وعرض زعمه هذا فى كتابه المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ،وسنتعرض لنموذج من رجال التفسير ؛ وهو سيدنا عبد الله بن عباس τ .

يقول جولدزيهر: "وكثيراً ما يُذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أى ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى، الذى أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبى يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام، ويختم التوراة فى ستة، يقرؤها نظراً، فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يُقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب فى الاستفادة من التوراة.

الرد على هذا الاتهام

في بداية الرد على هذه الشبهات التي أثارها جولدزيهر عن ابن عباس ؛ أذكر هنا شيئاً من مناقب ابن عباس وقيمتة العلمية .

وقد كان بعض الصحابة وكثير من التابعين يرجعون إلي ابن عباسτ فى فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجَّه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عَزَّ عليهم فهمه من كتاب الله تعالى.

ففي قصة موسى مع شعيب أُشكل على بعض أهل العلم، أى الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشراً؟ ولما لم يقف على رأى يمم شطر ابن عباس، الذى هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه، وفى هذا يروى الطبرى فى تفسيره، عن سعيد بن جبير قال: "قال يهودى بالكوفة - وأنا أتجهز للحج - إنى أراك رجلاً تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حَبْر العرب - يعنى ابن عباس - فسائله عن ذلك، فلما قدمتُ مكة سألتُ ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ النبى إذا وعد لم يُخلف، وقال سعيد: فقدمتُ العراق فلقيتُ اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أُنزِلَ على موسى.

المحاضرة العاشرة: نـهاية الاستشراق ومآلاته

1- نـهاية الاستشراق ؟؟

تناول الكثير من الدراسين ما آل إليه الاستشراق في العصر الحالي مفهوما وموضوعا ومنهجا ، فأشار بعضهم إلى أن بداية أزمة الاستشراق كانت منذ1945 ، خاصة كما يقول مازن مطبقاني مع بداية الحديث عن تغيير مسميات الاستشراق التي يقول عنها برنارد لويس بانها أصبحت ملوثة؛ إلا أن أغلب الكتابات في هذا الشأن أشارت إلى وجود أزمة في المنهج مع إقرارها بعدم زوال الفكر الاستشراقي.

ففي 1937 أشار المستشرقون المشاركون في مؤتمرهم العالمي في باريس بضرورة الاستغناء عن هذا المصطلح ، بأن يطلق على هذه المؤتمرات اسم: المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال إفريقيا، ومما ذكره الدكتور في هذه المسألة أن عددا من المستشرقين المعاصرين اعترضوا على تسميتهم بالمستشرقين وفضلوا تسميتهم بالمستعربين أو المتخصصين في الدراسات الإسلامية أو الشرقية منهم اندريه ميكيل و شوفالييه وجون اسبوزيتو وجان بول شارليه وكلود كاهن وكراتشكوفسكي وجاب بيرك.

لكن يؤكد الكثيرون على أنه وغن تغيرت المصطلحات فإن ذلك لايعني نهاية مضمون الاستشراق، وأن ماي تم تداوله من أن الاستشراق قد انتهى ماهو إلا التفاف لأجل تهيئة البديل أو ربما تغيير الأسماء من دون أن تتغير المسميات، مع الإشارة إلى تمسك الكثير من المستشرقين المعاصرين بمنهجه القديم من دون الخروج عن تصوره وغاياته ومضامينه .

2- الاستشراق المعاصر

يرى المستشرق فرانشيسكو غابرييلي أن الاستشراق الذي كان يعد في البداية علما واحدا متكاملا سرعان ما انقسم إلى فروع وتخصصات مستقلة بعضها عن بعض ومتعلقة بمختلف الحضارات الخاصة بالشرق الإفريقي- الآسيوي وأشار إلى وجود ظواهر تؤكد بقاء الاستشراق واستمراره ومن ذلك الجمعيات الاستشراقية التي ماتزال قائمة مثل الجمعية الاستشراقية الألمانية والجمعية الآسيوية الملكية الانجليزية والجمعية الآسيوية الفرنسية ، قد أخذت تميل إلى عقد مؤتمرا أكثر تخصصا بشؤون العالم العربي والإسلامي والهندي والصيني وغير ذلك من مجالات البحث والتخصص.

والأكيد أن وجود هذه الجمعيات الاستشراقية ومؤتمراتها يدل لى استمرار الاستشراق في وقتنا الحالي إلا أنه توجه إلى تخصصات دقيقة في الشؤون العربية والإسلامية وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، فقد اتجهوا إلى العلوم الإنسانية والدراسات الاجتماعية، ومناهج جديدة مثل السوسيولوجيا وعلم الإحصاء والأنثروبولوجيا والتاريخ وعلم النفس والاقتصاد والسياسة وغير ذلك ..

كما أن وسائل المستشرقين المعاصرين قد تنوعت وتعددت في تشويه صورة العرب والمسلمين بما صار بين أيديهم من وسائل الإعلام الحديثة والسينما وغيرها من وسائل الاتصال الأكبر تأثيرا والأسرع انتشارا التي مكنتهم من نقل شبهاتهم ومخاطبة الكثيرين بعيدا عما كان مألوفا في وسائلهم القديمة كالتأليف مثلا.

وعليه فإنه مما لاشك فيه أن الاستشراق لايزال قائما ن بل ازدادت خطورته وعم انتشاره وإن اختلفت الصورة والاسم عن الاستشراق القديم

3- الاستشراق والاستغراب.

مما أشرنا إليه في معرض حديثنا عن مناهج الاستشراق ووسائله أن أصحابه سعوا لإنشاء مدارس وجامعات ومراكز بحث وتكوين لاستيعاب الكثير من طلبة العرب والمسلمين بغية صناعتهم على عين المستشرقين ونشرهم في البلاد العربية لنشر سموم الاستشراق وهو ما حدث فعلا مع الكثيرين كطه حسين الذي تبنى تصورات أستاذ مرجليوث .

وقد سار هذا الفعل سنة عند الكثيرين من المستغربين العرب الذين اختفوا وراء مسميات الحداثة والتنوير والتجديد ، وماهم في الحقيقة إلا تلاميذ الفكر الاستشراقي الذي تملّك تفكيرهم ومنهج مثل نوال السعداوي وجمال البنا وأركون ونصر حامد أبو زيد ، وشحرور ، وعدنان إبرهيم وغيرهم الكثير ممن وقعوا في مستنقع الفكر الاستشراقي المعاصر .

وقد دعا هؤلاء إلى القطيعة مع التراث، وسعوا إلى تطبيق المناهج الغربية الاستشراقية في فهم النّصوص الدينيّة على مجمل الخطاب القرآنيّ، وقاموا بنقد الآليّات التي وضعها المسلمون لفهم النّصّ القرآنيّ، ودعوا إلى ضرورة استبدالها بمناهج غربيّة، بحجة أنَّ تلك الآليّات هي السبب في التخلّف، ولم تكتف تلك الشخصيات الحداثيّة بالقطيعة مع التراث الإسلاميّ المُفَسِّر للنصّ القرآني؛ بل دعت إلى العمل على النّصّ القرآنيّ نفسه، وعلّلت سبب تلك الدعوى بأنَّ النصّ القرآنيّ هو محور الحضارة الإسلاميّة، فلا بدَّ أنْ تتعدّد تفسيراته وتأويلاته، ولا بدَّ من تنوّع الآليّات المنهجيّة المتّبعة في فهم نصوصه متأثرين بالنظريّات الغربيّة والمنجزات الاستشراقيّة في مجال فهم النصّ الديني

فالعلاقة بين الاستشراق والحداثيين وثيقة، فقد استند الفهم الحداثي للقرآن الكريم على آراء ودراسات المستشرقين، بأن وظف الحداثيون أدوات النقد الحديثة لفهم القرآن، بل إن بعض الدراسين وهو واقع فعلا يشيرون إلى أن الحداثيين والمستشرقين تقاسموا كثيرا من المرجعيات والمنطلقات المعرفية والمناهج، رغم توجيه بعض الحداثيين نقدا للاستشراق، لكن الحقيقة البارزة أن هناك تأثيرا بنيويا ومنهجيا استشراقيا في منطلقات الحداثيين ومناهجهم.

ويلاحظ أن الاستشراق لفت الانتباه إلى مسألة التراث، أما الحداثيون فانغمسوا في محاولة تفكيك التراث، وإعادة قراءته مرة أخرى وفق المناهج الحديثة، كما أن كثيرا من الحداثيين خضعوا للتلقى المباشر وغير المباشر من المستشرقيين، وهو ما أثر في تفكيرهم، فمثلا " محمد أركون" تأثر بمدرسة الحوليات الفرنسية، وهي مدرسة تاريخيّة حديثة تأسّست عام 1929 م، كما تأثر بالاستشراق، فهو درس في معهد الاستشراق في باريس، وتأثر بكبار المستشرقين الفرنسيين، مثل: "شارل بيلا Charles Pellat "و"كلود كاهين Claude Cahen "و"جاك بيرك" وكلّهم كانوا يدعون لإخضاع القرآن للمناهج الغربيّة، وكان مشروعه يرتكز على تحرير الفكر الإسلامي من المناهج القديمة، وإقامة نظام إسلامي وفق شروط الحداثة، من خلال اعتماد المنهجيات الغربية والإفادة من أدواتها وآلياتها، وابتكر ما أسماه بـ"الإسلاميات التطبيقية"، ومع ذلك انتقد الاستشراق ومنهجه الوصفي، وعدم التفات الاستشراق إلى التطور في الدراسات التاريخية، وانتقد تمسك الاستشراق بالبنية الداخلية للنصوص دون السياقات، لذا كان يدعو لغربلة جميع النصوص الدينية من خلال تطبيق العلوم اللسانية والاجتماعية الحديثة على النص القرآني، وأعلن "أركون" عن مشروعه النقدي عام 1984 في كتابه "تاريخية الفكر العربي الإسلامي"، وكان يدعو إلى إخضاع القرآن لمناهج العلوم الإنسانية الحديثة، لكنه رجح القرءات الشاذة على المتواترة سيرا على ما ذهب إليه المستشرق الأمريكي " دافيد باروس"، ورغم نقد "أركون" للمناهج الاستشراقية فإنه لم يستغن عنها في مشروعه.

وأما "نصر حامد أبو زيد" فقد ادعى أن الوحي نص ثقافي تأثر وتشكل في البيئة العربية، وأصر على تفسير القرآن بناء على الظروف التاريخية التي نزل فيها أولا، ومعنى هذا أن القرآن الكريم يفقد قدرته على إنتاج الأحكام، أما "هشام جعيط" فيلتقي مع الاستشراق في الشبهات القائلة بالوحي النفسي، أما عبد المجيد الشرفي فتحدث عن الوحي النفسي مكررا مقولات المستشرق "مونتجمري وات". وفيما يتعلق بتقسيم السور إلى مكية ومدنية فإن الحداثيين رأوا أن الواقع هو الذي يقسم السور، وبالتالي فإن الواقع يتدخل في تشكيل القرآن الكريم، ووفقا لهذه الرؤية فإن الواقع تدخل في إنشاء النص وتشكيله، وهو ما يتماشى مع فرضيتهم بالقول بتاريخية النص القرآني، وحسب زعمهم أن القرآن منتج بشري، فـ"طيب تيزيني" ادعى وجود تناقض بين الآيات في المرحلة الواحدة سواء أكانت مكية أو مدنية، وهو رأى يتفق مع ما ذهب إليه المستشرق الشهير "جولد تسيهر."

وفي حصص الأعمال الموجهة بحول الله سنرى نماذج أكثر لبعض من يسمون بالحداثيين العرب تثبت تأثرهم الواضح بالمنهج الاستشراقي.